الإيمان بالقضاء والقدر وأثره في السلوك

بقلم فضيلة الشيخ الدكتور
ياسر برهامي





بسم الله الرحمن الرحيم

دار الخلفاء الراشدين
للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

دار الخلفاء الراشدين
للنشر والتوزيع
ج.م.ع - الإسكندرية
٢ شارع منشية الزهراء - حي الرمل
٠١٠٥٠١٣١٥١ / ٠١٠٦٧١٤٧٦٨

دار الفتح الإسلامي
للنشر والتوزيع
ج.م.ع - الإسكندرية
مصطفى كامل - بجوار مسجد الفتح
٠١٠٥٠١٣١٥١ / ٠١٠٧٣٨٢٧٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شُرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يَهده اللهُ فلا مُضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (النساء: ١).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ (الأحزاب: ٧٠-٧١).

أما بعـد:

فإن أصدقَ الحديث كـتابُ الله، وأحسـنَ الهدي هديُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُهـا، وكلَّ محدثة بدعةٌ، وكلَّ بدعة ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

ثم أما بعد .. فإن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان لا يصح إيمان عبد إلا به، وقد جعل الله المكذب بالقدر يصلى سقر فقال: ﴿ **يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾ (القمر:٤٨-٤٩)، روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنها نزلت فـي المكذبين بالقدر[1]، ولم يزل البشـر تشغلهم قضـية الجبر والاخـتيار وتتـجاذبهم الأهواء المختلفة والآراء المتعارضة، ولا تصل عقولهم الحائرة إلى بر الأمان ودفء الطمـأنينة إلا بنور الكتاب والسنة، فالقـضية أوضح من شمس النهار بأدلتها العقلية والنقلية، فضلاً عن الثـمار العظيـمة التي تـثمـرها هذه الأدلة في نفس المؤمن وسلوكه وأخلاقه وتعامله مع الواقع الذي يعـيشه بعيدًا عن

---

(١) رواه مسلم (٨)، والترمذي (٢٦١٠).

السفسطة الكلامية والافتراضات العقلية والسخافات الفلسفية، ولا يسعد الإنسان في حياته المليئة باللذة والألم والوجد والفقر والشدة والرخاء إلا بالإيمان بالقدر وذوق الثمار الطيبة لهذا الإيمان في قلبه.

وقد ألقيت محاضرتين في الإيمان بالقدر وأثره بالسلوك، وبينت فيها مراتب الإيمان بالقدر الأربعة عند أهل السنة والجماعة وأثر كل مرتبة في السلوك من خلال الأدلة من الكتاب والسنة وقد طلب بعض إخواننا إعدادهما للطبع لتعم الفائدة فاستجبت لذلك وهاهما بين يديك أيها القارئ الكريم، فما كان من صواب فمن الله وهو الذي منَّ به، وما كان فيهما من خطأ فمن الشيطان ومني، والله ورسوله بريئان، وأنا استغفر الله وأتوب إليه ولا أعدم من أخ كريم استفاد منها شيئًا دعوة صالحة بالمغفرة والرحمة لي ولوالدي ولأحبابنا وسائر المسلمين.

والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

كتبه
ياسر برهامي



الإيمان بالقضاء والقدر
وأثره في السلوك

إن الإيمان هو النعمة العظيمة التي إذا وهبها الله عبدًا من عباده يسَّر له بها سعادة الدنيا قبل سعادة الآخرة، فإذا ضاقت عليه الدنيا وأحاط به أعداؤه وأعداء دينه من كل جانب، وجد في هذا الضيق أوسع السعة.

فالإيمان ـ والإيمان بالقضاء والقدر خصوصًا ـ من أعظم أسباب السعة التي يوسع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بها على المؤمنين الضيق ويهون عليهم كل مصيبة ويحميهم من أمراض الأسى والحزن، وذلك لأن المؤمن يستشعر قوته بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ حين يستحضر أن القوة لله جميعًا، وأن الأمر أمره، وأنه خالق كل شيء، وأنه خلق كل شيء بقدر، وبذلك يتغير سلوكه في معاملة الواقع تغيرًا جذريًا.

وهذه القضية ـ قضية القضاء والقدر ـ من أكثر ما حير عقول البشر على مر العصور، فتاهوا في ظلمات الحيرة

حين نبذوا ما أتت به الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وراء ظهورهم حتى كفر البعض بوجود الله بسبب حيرته تلك.

فهذا كارل ماركس يزعم أنه لو كان هناك رب فاعل فكيف يجتمع مع فعله أفعال العباد ومسؤولياتهم عنها؟ وإذا كانت له قدرة فلابد أن تنعدم قدرتهم، وإذا كانت للعباد قدرة - وهذا هو المُحَسُّ عنده - فلا معنى لوجود الإله. فقد تسبب إنكاره للقدر، والغلو في إثبات حرية الاختيار، تسبب ذلك في إنكار وجود الله - عزَّ وجلَّ - نعوذ بالله من هذا الضلال المبين.

وعلى النقيض نجد أن المشركين تسبب غلوهم في الجبر[1] في تسويغ كفرهم، كما قال تعالى: ﴿ **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ**

(١) الجبر: هو اعتقاد أن الإنسان مجبور على أفعاله ولا اختيار له فيها ولا قدرة ولا إرادة عليها كورقة الشجر تحركها الرياح.

الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (الأنعام: ١٤٨)، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (النحل: ٣٥)، هذا فضلاً عن صور الانحراف الكبرى التي وقعت فيها الفرق الضالة بين الجبر والاختيار.

والعجيب أن هذه المسألة رغم أنها تشغل كل إنسان لأن الفطرة الإنسانية تسأل دائمًا عن العلاقة بين فعل العبد وفعل الرب ـ عزَّ وجلَّ ـ إلا أنك تجد أكثر الناس لا يطلبون الإجابة عنها من مصدرها الوحيد وهو الوحي المنزل من عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وإنما تتخبط عقولهم يمينًا وشمالاً، وتجد أعاجيب الأقاويل التي ما خرجت من قائليها إلا بسبب الخذلان والضلال عن مصدر الهداية.

ولذلك نقول: إن طريقة القرآن والسنة هي أعظم طريقة في البيان، مع ما يترتب عليها من العمل الصالح والسلوك القويم، فالمؤمن يجد في كتاب ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ وسنة نبيه

ﷺ العقيدة الصحيحة الصافية، ويجد فيه الحال القلبي الإيماني، ويجد فيه السلوك العملي بالجوارح كذلك، وكل ذلك مرتبط في نسيج واحد بطريقة عجيبة لا نظير لها.

ثم هي بعد ذلك طريقة ميسرة، فالله - عزَّ وجلَّ - يسر القرآن للذكر والسنة هي بيان القرآن، ولم يجعل الله - عزَّ وجلَّ - هذا التيسير في النظريات العقلية ولا في المباحث التجريبية.

ونظرة سريعة لطريقة الفلاسفة في مناقشة قضية الجبر والاختيار - مع ما فيها من الانحراف والضلال - ومقارنتها بالطريقة القرآنية الميسرة تجد البون شاسعًا والفارق كبيرًا.

ولما كان الإيمان بالقضاء والقدر هو في الحقيقة إيمان بأسماء الله - عزَّ وجلَّ - وصفاته وأفعاله، إيمان باسمه - عزَّ وجلَّ - العليم، والقدير، والفعال لما يريد، والخالق، والبارئ، والمصور..، وبفعله - عزَّ وجلَّ - أنه كتب مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، لَمَّا

كان ذلك، كان من أحسن ما قيل في هذا الباب قول الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «القدر قدرة الله»، وذلك أن مرجع الإيمان بالقضاء والقدر إلى الإيمان بصفات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مع بيان علاقة أفعال الرب ـ عزَّ وجلَّ ـ بأفعال العباد التي بينها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في ثلاثة مواضع من كتابه الكريم.

* قال تعالى: ﴿ **وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ** ﴾ (المدثر: ٥٦).

* وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ **إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ (الإنسان: ٢٩-٣١).

* وقال: ﴿ **لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (التكوير: ٢٨-٢٩).

وهذه الآيات كلها بيان لصفات الله؛ كالمشيئة والعلم والحكمة.

وقد بين أهل العلم من أهل السنة والجماعة أن مراتب الإيمان بالقضاء والقدر أربعة:

المرتبة الأولى - الإيمان بعلم الله الأول السابق على وجود المخلوقات، فالله - عزَّ وجلَّ - قد علم بعلمه الموصوف به أزلاً ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم.

قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (النساء: ١٧٦).

وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (النساء: ٣٢).

وقال: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (الطلاق: ١٢).

والله علم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، قال تعالى في الكفار: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ (الأنعام: ٢٨)؛ فالكفار لا يُردون إلى الدنيا بعد دخولهم النار، والله علم أنهم لو رجعوا إلى الدنيا لعادوا إلى التكذيب، وهذا أمر لم يكن، ولكن علم الله قد أحاط به.

وهذا العلم السابق لا يحاسب الله العباد عليه، بل يحاسبهم على علمه بما وقع منهم من أفعالهم التي فعلوها باختيارهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ (محمد:٣١)، يعلم علمًا يحاسبهم عليه.

المرتبة الثانية - الإيمان بأن الله - عزَّ وجلَّ - كتب مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ (الحديد:٢٢)، أي: نخلقها.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْقَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ فَقَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟، قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**»، وفي رواية: «**اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[1].

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٨٦)، والترمذي (٢٠٥٥)، وأحمد (٢٢٧٥٧)، وصححه الألباني.

وفي صحيح مسلم: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»(١).

ثم تبعتها كتابات وتقديرات:

(أ) فمنها: التقدير يوم القبضتين قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ أَخَذَ الخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ وقَالَ: هَؤُلاءِ فِي الجَنَّةِ، وَلاَ أُبَالِي وهؤلاءِ فِي النَّارِ، وَلاَ أُبَالِي»، فقال قائل: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل؟ قال ﷺ: «عَلَى مَوَاقِعِ القَدَرِ»(٢).

وأخذ عليهم الميثاق الأول ألا يشركوا به شيئًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٢).

(٢) رواه عبد الله بن أحمد (١٧٦٩٦)، وأحمد (٤/١٨٦)، وابن حبان (٣٣٨)، والحاكم (١/٣١)، وصححه الألباني (٤٨) «الصحيحة».

قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٢-١٧٤).

(ب) ومنها الكتابة والتقدير قبل خلق آدم ﷺ وقبل أن يكون هو وذريته في الأرض، وقد كتب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ التوراة قبل خلق آدم ﷺ بأربعين سنة، وكتب فيها: ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ (طه: ١٢١)، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الجَنَّةِ، قَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلامِهِ وَخَطَّ لَكَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى ثَلاثًا»[1]، وفي رواية: «قَالَ آدَمُ: فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ قَالَ: بِأَرْبَعِينَ سَنَةً. قَالَ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ (طه: ١٢١)، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: كَيْفَ تَلُومُنِي عَلَى

---

(١) رواه البخاري (٦٢٤٠)، ومسلم (٢٦٥٢).

أَمْرٍ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟!»، قال ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى . ثلاثًا .»[1] .

(جـ) ومنها الكتابة، والإنسان جنين في بطن أمه: كما في حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه مرفوعًا: «إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكًا؛ فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا، وبَصَرَهَا، وَجِلْدَهَا، وَلَحْمَهَا، وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَارَبِّ .. أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ .. أَجَلُهُ؟ فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ .. رِزْقُهُ؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ»[2] ، فهذه كتابة عند الأربعين.

وهناك كتابة أخرى عند نفخ الروح، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ

---

(١) رواه البخاري (٦٦١٤).

(٢) رواه مسلم (٢٦٤٥) واللفظ له، وابن حبان (٦١٧٧)، والطبراني (٣٠٤٤) «الكبير»، والبيهقي (١٥٢٠١).

أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ المَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ؛ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ؛ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»[1].

(د) ومنه التقدير السنوي في ليلة القدر: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (الدخان: ٤).

(هـ) ومنها التقدير اليومي: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن: ٢٩).

---

(١) رواه البخاري (٣٠٣٦، ٣١٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣).

ورسول الله ﷺ صعد في رحلة المعراج إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، قال ﷺ: «... **ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الأَقْلامِ**»[1].

فالله - عزَّ وجلَّ - لم يزل فعالاً لما يريد، ﴿ **يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** ﴾ (الرحمن: ٢٩)، يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا، ويعز ذليلاً، ويجبر كسيرًا، ويميت ويحيي، ويُسعد ويشقي، ويعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويفعل ما يشاء سبحانه.

والعباد يحاسبون على ما كتبته الملائكة من أعمالهم، فكِتَابُ الأعمال الذي يوضع في موازينهم، وإن كان نسخة من الكتاب الأول، إلا أنهم هم الذين أملوه بأعمالهم، وإنما يحاسبون على هذه الأعمال: ﴿ **وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** ﴾ (الإسراء: ١٣-١٤).

---

(١) رواه البخاري (٣٤٢)، ومسلم (١٦٣).

المرتبة الثالثة - الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يكون في هذا الكون حركة ولا سكون، ولا خير ولا شر، ولا إيمان ولا كفر، ولا طاعة ولا معصية إلا بمشيئته - عزَّ وجلَّ - فأمره نافذ ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾[1] (يس:٨٢)، وقدرته شاملة يدخل تحتها جميع أفعال العباد

---

(١) **والإرادة نوعان: (أ) إرادة كونية:** أي: بها تكون الأشياء. ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ (يس:٨٢).

وهذه تشمل كل الموجودات: خيرها وشرها، ما أحب الله منها، وما أبغضه، ما مدحه وما ذمه؛ فهو الذي أراد وجود إبليس، وأبي لهب، وفرعون، ووجود الشر، وهو يبغض كل ذلك، كما أنه الذي أراد وجود الملائكة، والأنبياء، والمؤمنين، وكل الخير، وهو يحب ذلك، وخلق كلًّا لحكمة يعلمها، وقد يُطلع بعض خلقه على بعضها.

كما قال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ**﴾ (آل عمران:١٤٠)، وقال النبي ﷺ: «**وَالذي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ؛ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**» (رواه مسلم :٢٧٤٩). =

الاضطرارية والاختيارية[١]، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:٢٨٤)، ومع ذلك أمر العباد بطاعته ونهاهم عن معصيته، وهو يحب المتقين، ويحب المقسطين، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب المحسنين.

= (ب) **إرادة شرعية:** أي: ما يأمر الله به من الطاعات، وما ينهى عنه من المعاصي: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥)، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ (النساء: ٢٧).

وهذه تشمل كل ما يحبه الله ويرضاه سواء أُوجِدَ أم لم يوجد.

والحساب والثواب، والمدح والذم، والحب والبغض، ودخول الجنة والنار .. يكون بناءً على هذه الإرادة، فمن وافقها، وعمل بشرع الله كان من أهل الجنة، ومن خالفها، فهو من أهل النار.

والإرادتان: الشرعية والكونية تجتمعان في إيمان المؤمن؛ فهو مؤمن بتوفيق الله له، ومشيئته له الإيمان، وهو يعمل بطاعة الله، وما أراد الله منه.

ويفترقان في كفر الكافر؛ فهو كافر بمشيئة الله ليس قهرًا على الله، وهو مخالف لما أراد الله منه «الإرادة الشرعية».

(١) **الأفعال الاضطرارية:** كدق القلب، وجريان الدم في العروق، وحركة المعدة، والأمعاء، ونحو ذلك، وكذلك ولادة الإنسان، وموته، ومرضه؛ فهي تسمى أفعالاً مجازًا.

وأما الأفعال الاختيارية: فكالصلاة، والصيام، والطاعة، والمعصية، والزنى، وشرب الخمر، والقتل، وسائر الحركات الإرادية، وأنت =

وهو سبحانه لا يحب الظالمين، ولا يحب كل خوان كفور، ولا يحب من كان مختالاً فخورا، ولا يرضى لعباده الكفر، فمحبته وكراهيته تابعان لأمره ونهيه الشرعيَّيْن، فما أمر به فهو يحبه، ويحب مَن فعله، وما نهى عنه فهو يكرهه ويكره مَن فعله.

وما قدره - عزَّ وجلَّ - من الأمور التي يكرهها شرعًا فإنما قدره لحكمة بالغة، ومصلحة راجحة، فالخير كله في يديه، والشر ليس إليه، سبحانه وبحمده.

المرتبة الرابعة - الإيمان بخلق أفعال العباد وقدرتهم ومشيئتهم خيرها وشرها: - وهي الخلق والجعل - فـ ﴿ اللَّهُ

= تلحظ من هذا أن مشيئة الله شاملة للنوعين، فالإجابة عن سؤال: هل الإنسان مسيَّر أم مخيَّر؟ هذا السؤال خاطئ، كمن يسأل (٤+٥) هل هي (١٠) أم (٨)؟ فنقول: كلا الجوابين خطأ، والإجابة بأنه مسيَّر في الأمور الاضطرارية، ومخيَّر في الاختيارية .. إجابة باطلة، لأن السؤال لم يكن على الأمور الاضطرارية أصلاً، إذ لا ينازع فيها عاقل، وإنما كان على الأمور الاختيارية، فالإجابة بأنه مخير فيها ينفي شمول إرادة الله تعالى لأفعال الإنسان الاختيارية.

﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الزمر: ٦٢)، خالق أفعال العباد كما أنه خالق ذواتهم، خلق للعباد قدرة ومشيئة بها تقع أفعالهم، وهم فاعلون، والله خالقهم وخالق قدرتهم وأفعالهم كذلك قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات: ٩٦)، ولا يعني إثبات خلق أفعال العباد إلغاءَ قدرتهم وإرادتهم في إيجاد تلك الأفعال، وإنما الله خالقهم وخالق قدرتهم ومشيئتهم، والعباد ميسرون لما خلقوا له.

قال ﷺ: «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلاَّ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، إِنْ شَاءَ - أَنْ يُقِيمَهُ - أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ - أَنْ يُزِيغَهُ - أَزَاغَهُ»، وكان ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ - وفي رواية: مثبت - الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ»[1].

وللعباد قدرة، ومشيئة؛ بها تقع أفعالهم: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (فصلت: ٤٠)، والله خالقهم، وخالق مشيئتهم، وهم لا يشاؤون إلا أن يشاء الله.

---

(١) رواه ابن ماجه (١٩٩) واللفظ له، وأحمد (١٧٦٦٧)، وابن حبان (٩٤٣)، والحاكم (١٩٢٦)، وصححه الألباني (٥٧٤٧) «صحيح الجامع».

وخلق أفعال العباد ومشيئتهم لا يعني إلغاء هذه المشيئة، بل هي موجودة مخلوقة، ولكن مشيئة الله فوق ذلك، ومشيئته سبحانه تنفذ فيهم من خلال ما يفعلون بأنفسهم، ومشيئتهم. ومشيئة العباد لها أثر في أفعالهم: بها تقع تلك الأفعال، وهذا هو الكسب، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

والإنسان ميسَّر لِمَا خُلق له، ليس مسيرًا بمعنى أنه لا إرادة له، ولا اختيار، وليس بمخير بمعنى الاختيار المطلق، لا سلطان لله على قلبه ومشيئته، بل إن كلاً من الجبر المطلق والاختيار المطلق باطل .. فالجبر طعن في التشريع، ونفي مشيئة الله طعن في التوحيد: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»[١].

والأخذ بالأسباب واجب، والاعتقاد فيها شرك «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ»[٢].

---

(١) رواه البخاري (٦٥٩٦)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٧٩)، وابن حبان (٥٧٢١).

والعبد فاعل ومنفعل، أي: هو يفعل فعله، ويخلق الله ما أراد، فمثلاً: العبد مهتد؛ والله هداه، والعبد مُصلٍ وصائم، والله أقامه بين يديه، ووفقه للصوم طاعةً له، وفرعون خرج في طلب موسى عليه السلام وبني إسرائيل؛ والله أخرجه. كما قال: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (الشعراء: ٥٧).

والله لا يظلم عباده أبدًا، بل لا يحاسبهم إلا على ما صدر منهم، ولا يهلكون إلا بذنوبهم، ولو عذب أهل سماواته وأرضه، لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (القصص: ٥٩)، ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسراء: ١٦)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (النساء: ٤٠)، والله من أسمائه: الحكم، والعدل.

هذه هي مراتب الإيمان بالقدر الأربعة، التي عدها أهل العلم وذكروها، ولكن مجرد سردها وعدها لا يكفي لتغيير

السلوك، ولا ليـؤثر في القـلب ذلك التـأثيـر العظيم الذي تحـدثه تلاوة كتـاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ومـا ذكره الرسـول ﷺ، لأن القرآن والسنة لم يذكـرا هذه المراتب كعلم نظري أو فكر عقلي، وإنما ذكـراها كإيمان يحل في القلب، ويؤثر في السلوك، فإن الإيمان ـ كما نعلم ـ قول وعمل.

فالطريقـة القرآنية والنبـوية تلفت أنظار العبـاد إلى أمور معينة لابد أن تلـتفت إليها القلوب لتحـيا بالإيمان، وتمتلئ بالنور الذي أنزله الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

وهذه مـحاولة للتـطبيق العـملي على ذلك بذكـر هذه المراتب الأربعة بأدلتها من الكتـاب والسنة، ومحاولة التدبر فيهـا لنتعرف على الفوائد العـملية التي يؤثر تطبيـقها على السلوك ويغيره.

* * *

أولاً ـ العلم

قال ـ سبحانه وتعالى ـ في بيان علمه: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ...﴾ (الأنعام: ٥٩-٦٠).

هكذا يغرس القرآن الإيمان بسعة علم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في النفوس، ولا يذكر ذلك كخبر مجرد، بل يدعو للتفكر في ذلك بطريقة تزيد الإيمان وتعمق اليقين.

١ ـ ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾:

قد فسرها الرسول ﷺ في الحديث الجامع ـ حديث جبريل عليه السلام ـ حين سأل الرسول ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، ثم سأله عن الساعة؛ فقال ﷺ: «مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ وَسَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا رَأَيْتَ الْمَرْأَةَ تَلِدُ رَبَّتَهَا ـ وفي رواية: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ـ فَذَاكَ مِنْ

أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا رَأَيْتَ الحُفَاةَ العُرَاةَ الصُّمَّ البُكْمَ مُلُوكَ الأَرْضِ - وفي رواية: **الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ في البُنْيَانِ - فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، فِي خَمْسٍ مِنَ الغَيْبِ لا يعلمهن إلا الله ثم قرأ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾** (لقمان: ٣٤)»[1].

فبيَّن رسول الله ﷺ في هذا الحديث أن أعلى البشر قدرًا ومنزلة وهو النبي ﷺ وأعلى الملائكة قدرًا ومنزلة وهو جبريل عليه السلام لا يعلمان شيئًا من هذه الخمس التي استأثر الله - العليم الحكيم - بعلمها.

(أ) **﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾**: وضَّح ﷺ في هذا الحديث أيضًا أن إخباره عن علامات الساعة لا يخرجها عن كونها غيبًا، لأنها علامات على قرب قيام الساعة، ولكن لا يعلم وقت قيامها بالتحديد إلا الله - عزَّ وجلَّ -: **﴿ قُلْ**

---

(١) رواه مسلم (١٠).

إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً . . . ﴾ (الأعراف: ١٨٧).

ولذلك فكل الذي نعلمه عن وقت قيام الساعة أنه قريب، وهذا القرب أمر نسبي، فالنبي ﷺ منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة نزل عليه فيما نزل ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (القمر: ١)، وكان يقول ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، وقَرَنَ بين إصبعيه السبابة والتي تليها»(١)، بل إن الساعة وُصفت بهذا القرب من زمن قبل ذلك. كما في الحديث الصحيح: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى

---

(١) هذا الحديث ورد عن أنس، وسهل بن سعد.
- أما حديث أنس: رواه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) وغيرهما.
- أما حديث سهل: رواه البخاري (٤٩٣٦)، ومسلم (٢٩٥٠) وغيرهما.

آدَمَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلاً مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ...» الحديث[1]، فداود ﷺ في آخر الزمان.

وأما علامات الساعة مثل ظهور الدجال، ونزول عيسى ابن مريم ﷺ فإننا وإن كنا نعلم يقينًا أنها ستحدث إلا أننا لا نعلم متى سيحدث ذلك، لأن ذلك مما سيكسب الناس في غد، وكما تقول السيدة عائشة ﵂: «**مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الفِرْيَةَ - الكَذِبَ - وَاللهُ يَقُولُ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾** (النمل: ٦٥)»[2].

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح (٣٠٧٦)، والحاكم (٤١٣٢) «المستدرك»، وصححه الألباني (٥٢٠٨) «صحيح الجامع».

(٢) رواه مسلم (١٧٧)، والترمذي (٣٠٦٨).

فالرسول ﷺ عندما نفى عن نفسه علم الساعة لم يقل ذلك تواضعًا ـ كما يزعم بعض الصوفية ـ بل هو بالفعل لا يعلم شيئًا من مفاتيح الغيب التي استأثر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بعلمها.

وقد انتشرت كتب يحدد مؤلفوها عمرًا للأمة وموعدًا لظهور علامات الساعة الكبرى، وما كان لهذه الكتب أن تنتشر لولا بُعد الناس عن كتاب ربهم ـ عزَّ وجلَّ ـ وسنة نبيهم ﷺ، فإن النصوص فيهما واضحة غاية الوضوح. بل إن من علامات وضع الحديث وأنه كذب على رسول الله ﷺ أن يحدد عمرًا للأمة؛ فإن رسول الله ﷺ ـ يقينًا ـ لم يقل مثل هذا الكلام؛ لأننا نؤمن أن مفاتح الغيب لا يعلمها إلا الله.

قال ﷺ: «**مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ اللهُ، لاَ يَعْلَمُ مَا فِي غدٍ إِلاَّ اللهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلاَّ اللهُ، وَلاَ يَعْلَمُ**

مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلاَّ اللهُ، وَلا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ اللهُ»[1] .

(ب) ﴿ **وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ** ﴾: أي: لا يعلم متى ينزل الغيث إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

تأمل نزول المطر من السماء الذي به تحيا جميع الخلائق، قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** ﴾ (الأنبياء: ٣٠)، فبه تجري الأنهار وتملأ العيون والآبار ويشرب الناس ويزرعون، وتشرب البهائم وتعيش ويتغذى الإنسان على ذلك كله، ولو شاء الله لمنع ذلك أو جعله سببًا للهلاك كما يحدث في الفيضان وشدة الأمطار فيهلك الحرث والنسل وتغرق البلاد والعباد، فهذا الغيث لا يعلم متى ينزل إلا الله.

فما حكم التنبؤات الجوية إذن؟

أولاً ـ الأنسب أن تسمى: توقعات؛ لأنها مبنية على الظن، وهذا يقرُّ به الخبراء المتخصصون في هذا المجال، فلا

---

(١) رواه البخاري (١٠٣٩)، والنسائي (٧٧٢٨) بنحوه.

يجزم بنزول المطر إلا جاهل ضال، بل كما قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: من جزم أن المطر ينزل غدًا كفر ـ والعياذ بالله ـ لأنه لا يعلم ذلك إلا الله، وإنما أجرى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ سننًا نتوقع عندها حدوث التغيرات الجوية، ولكن لا نجزم بذلك، لأنها كثيرًا ما تتخلف.

ثانيًا ـ إذا قررنا أن هذه التوقعات مجرد ظن فلا مانع من العمل بالظن إذا كان غالبًا، كأن يمتنع الصيادون مثلاً من الإيغال في البحر بناءً على قول الخبراء: نتوقع أن تكون الرياح عاتية والأمواج عالية ونحو ذلك، فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو الذي ينزل الغيث.

أما إن قال قائل: إن الإنسان استطاع أن ينزل الأمطار الصناعية، فإن هذا هو الضلال المبين، وإلا فما يفعل هؤلاء المتمكنون ـ فيما يظنون ـ في الأرض إذا أصابها قحط أو إعصار مدمر؟ والله لا يملكون شيئًا إلا الانتظار العاجز الذي لا يغير من أحوال الكون شيئًا، وإنما مثل ما يسمى بالأمطار

الصناعية كمثل رجل صعد فوق مبنى عالٍ ورش الماء على من تحته فينزل رذاذ كالمطر لكنه ليس الذي يغيثهم، فكذلك رش بعض المواد الكيماوية على بعض السحب لا ينزل به المطر الذي يغيثهم إنما هي قطرات، فلا يُنزل الغيث إلا الله.

(جـ) ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾: قد يقول قائل: إن الإنسان قد اخترق حاجز الغيب بما استحدثه من تقنيات، فصار يعلم ما في الأرحام: أذكرٌ هو أم أنثى.

وهذا القول خطأ من وجهين:

الأول - أن علم ما في الأرحام ليس مقتصرًا على كونه ذكرًا أو أنثى، بل يشمل علم أجله وعمله ورزقه ومآله في الآخرة شقي أم سعيد وكل شيء عنه.

الثاني - أنهم لا يستطيعون معرفة كونه ذكرًا أو أنثى إلا بعد تكوّن الأعضاء التناسلية له، حين يصير ذلك من الغيب النسبي، إذ قد يشق بطن المرأة فيُعرف نوع الجنين.

أما علم الله - عزّ وجلّ - فهو سابق على كل ذلك.

فإن قيل: إنهم يستطيعون أن يحللوا المادة الوراثية لمعرفة نوع الجنين.

فهذا أيضًا خطأ:

فقد اكتشف الأطباء حديثًا إنزيمًا يُفرَز في الأسبوع السابع[1]، لتحديد نوع الجنين، فلو كان التركيب الوراثي للجنين أنثى وأفرز هذا الإنزيم لصار الجنين ذكرًا، فسبحان من لا يعلم ما في الأرحام إلا هو ﴿ **وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ** ﴾ (فاطر: ١١)، ﴿ **يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ** ﴾ (الشورى: ٤٩-٥٠).

(د) ﴿ **وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾: فقد علم سبحانه بسابق علمه

---

(١) هذا من الإعجاز العلمي للسنة النبوية، حيث أخبر النبي ﷺ بهذه الحقيقة، قبل اكتشافها بأربعة عشر قرنًا، كما في حديث حذيفة بن أسيد الغفاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا مرَّ بالنُّطْفَة...» (سبق تخريجه ص١٦).

عدد أنفاس خلقه وحركـاتهم وسكناتهم وأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم، ومن هو منهم من أهل الجنة في نعيم مقيم، ومن منهم من أهل النار في العذاب المهين.

فسبحان الله كم نَفَسٍ يتنفسه المرء وكم دقة يدقها قلبه في الدقيـقة؟ بل في السـاعة ثم في يـومه ثم في شهـره ثم في عمره؟ أمر لا يحيط به العـباد، ثم ينتهي كل ذلك مع انتهاء حيـاته فتتوقف رئتـاه عند آخر الأنفاس، ويتـوقف قلبه عند آخر الدقات. فسبحان من أحصى كل شيء عددًا، فللإنسان أنفاس معـدودة، ولقلبه دقات معـدودة، يهدم كل يوم جزءًا منها، ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ (مريم: ٨٤).

- علم الله - عـزَّ وجـلَّ - كل ذلـك أزلاً قـبل أن يولـد الإنسان، وأحاط بكل شيء علمًا.

- علم حركات العباد وسكناتهم مما يلتفت إليه الإنسان، ويشعر به، ومما لا يشعر به فيما هو ماض وما هو آت.

لابد أن نقطع أيضًـا أن ذلك من مـفاتيح الغـيب التي لا يعلمـــهن إلا الله - عـزَّ وجلَّ -، ولابد أن ننشـــر ذلك بين

المسلمين، لأنه قد انتشر بين كثير منهم اعتقاد أن الأولياء يستطيعون أن يعلموا الغيب، بل إن منهم من يعتقد ذلك في الكهنة، وهذا أقبح وأقبح، لأنه إذا كانت الملائكة والنبيون لا يعلمون ما في غد، فهل يعلم ذلك الكهنة والعرافون؟

لذلك فالمؤمن لا يذهب أبدًا إلى هؤلاء ولا يصدقهم، قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا**(1) **فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»**(2).

وكذلك الأمر في المنجمين الذين يدعون علم الغيب من الكواكب والنجوم؛ لأن ذلك يخالف بداهات يغرسها القرآن في قلوب المؤمنين.

---

(1) **العراف أو الكاهن:** الذي يدعي معرفة الغيب ومثله المنجم، قال شيخ الإسلام: إن العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم، كالحارز الذي يدعي علم الغيب، أو يدعي الكشف، والمنجم يدخل في اسم العراف.

(2) رواه أحمد (٩٥٣٢)، والحاكم (١٥)، وصححه الألباني (٥٨١٥) «صحيح الجامع».

قال الزجاج: «من ادعى أنه يعلم شيئًا من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن»، لأنه خالفه.

هذه هي مفاتيح الغيب التي استأثر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بعلمها، فلا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل. وحتى الملك الذي يكتب أجل الإنسان وعمله وشقي هو أم سعيد .. لا يعلم مفاتيح الغيب؛ لأن علمه مقيد بالمشيئة لأن كل الكتابات اللاحقة للكتابة في اللوح المحفوظ قابلة للمحو والإثبات، قال تعالى: ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ (الرعد:٣٩)، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الكتاب كتابان: كتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب»، فالكتاب الذي رفعت أقلامه وجفت صحفه هو اللوح المحفوظ، أما غيره من الكتب فهو مقيد بالمشيئة.

وكذلك علم الرسل ببعض الغيبيات التي يُعْلِمُهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إياها، كما قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ...**﴾ (الجن:٢٦-٢٧)،

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ **وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ...** ﴾ (البقرة:٢٥٥)، كل ذلك مقيد بالمشيئة، كما أخبر النبي ﷺ ليلة بدر بمصارع الكافرين بقوله: «**هَذَا مَصْرَعُ فُلانٍ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ**»[1]، فعلقه على المشيئة ولم يجزم به.

وما جزم به النبي الرسول ﷺ من الغيبيات أنه سيحدث فإنه يظل مجملاً من وجه آخر، كتحديد وقت وقوعه، كما أخبر عن علامات الساعة التي نجزم بوقوعها ـ فلا نقول: إن شاء الله سينزل عيسى بن مريم عليه السلام تعليقًا..، بل نحن موقنون أن الله قد شاء أن ينزل عيسى بن مريم عليه السلام، ولكن نقول: سينزل إذا شاء الله ـ فلا نستطيع أن نحدد وقتًا لذلك؛ فإن ذلك من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولا بأس أن نقول إن شاء الله في مثل ذلك تحقيقًا لا تعليقًا.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٧٣)، وأبو داود (٢٦٨١)، والنسائي (٢٠٧٤) واللفظ له.

٢ - ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ . . . ﴾:

يوجه القرآن الكريم أنظارنا إلى كيفية تعميق الإيمان بسعة علم الله - عزَّ وجلَّ - عن طريق التفكر، فحين يتفكر الإنسان في كل الكائنات الموجودة في البر والبحر ويتذكر أن الله - عزَّ وجلَّ - قد أحاط علمًا بكل ذلك يزداد إيمانه ويقينه.

فما من جبل إلا وهو يعلم ما في وعره، ولا بحر إلا وهو يدري ما في قعره.

انظر فيما في البر من النباتات على اختلاف أنواعها: أشجار عالية، ونباتات متسلقة، منها ذات الثمار والأزهار، ومنها غير ذلك، منها ما هو في غابات كبيرة هائلة، أو في الصحراء القاحلة وينبت برغم قلة الماء، فمن الذي أحاط علمًا بكل ذلك؟

وانظر أيضًا فيما في البر من الحيوانات على اختلاف أنواعها كذلك، من الذي أحاط علمًا بأنواعها وأعدادها وأرزاقها؟ هل يستطيع الإنسان - مهما أوتي من تقنيات

حديثة وإمكانات تخزين للمعلومات ـ أن يحيط علمًا بنوع واحد من هذه الأنواع؟

فهل يستطيع أحد أن يحصي أعداد النمل مثلاً، أو أن يعلم أين تختزن طعامها وكيف تختزنه، وكيف تبني مستعمراتها تحت الأرض؟ فهذا نوع واحد، فما بالك ببقية الأنواع؟ هذا غير ما في البر من الثروات والمعادن والجبال والسهول.

أما البحر فهو أكبر من ذلك وأعجب، فهو يغطي أربعة أخماس الكرة الأرضية، فمن الذي أحاط علمًا بما فيه من النباتات والطحالب والأسماك والثروات؟ من الذي يعلم ما في ظلمات البحر التي إذا أخرج الإنسان يده فيها لم يكد يراها؟

ومن الذي يضبط النسبة بين الماء المالح والماء العذب ويمنع هذا من الطغيان على ذاك؟

لاشك أن التفكر في كل هذا مما يزيد الإيمان بإحاطة علم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بكل شيء.

٣ - ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾:

يرشدنا القرآن إلى التفكر في هذه الأمور العجيبة. كم عدد الأشجار على ظهر هذه الأرض؟ وكم عدد الأوراق في كل شجرة؟ متى تسقط كل ورقة من هذه الأوراق؟ وأين تسقط؟ بل قد ذكر السلف في تفسير هذه الآية أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يعلم كم مرة ستتقلب هذه الورقة في الهواء قبل أن تسقط. فسبحان من يحيط علمًا بذلك، ويعلم أيضًا حال هذه الورقة بعد أن تسقط، كيف ستتحلل؟ وإذا صارت وقودًا، من سيستخدمه؟ ومتى؟ وكيف؟

عشرات الأسئلة عن كل ورقة شجر، الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحده هو الذي يعلم إجابتها على التفصيل.

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ في قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾، أي: ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات؟ ولاسيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم؟ كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ (غافر:١٩). اهـ.

يقول السعدي ـ رحمه الله ـ: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ ﴾، من أشجار البر والبحر والبلدان والقفر والدنيا والآخرة ﴿ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾. اهـ.

٤ ـ ﴿ وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ ﴾:

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: «من حبوب الثمار والزرع، وحبوب البذور التي يبذرها الخلق، وبذور النباتات البرية التي ينشئ منها أصناف النباتات». اهـ.

قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (يونس:٦١)، والذرة هي النملة أو حبة الغبار، قد كتب سبحانه كل تحركات هذه الذرة ذاهبة وعائدة فهو يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها.

٥ ـ ﴿ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ ﴾:

فكل شيء يبقى حيًا رطبًا أو ييبس فيموت فهو يعلمه سبحانه وكتبه في كتاب مبين.

٦ - ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾:

وهو اللوح المحفوظ، قد حواها واشتمل عليها، وبعض هذا المذكور يبهر عقول العقلاء، ويذهل أفئدة النبلاء، فدل هذا على عظمة الرب العظيم، وسعته في أوصافه كلها، وأن الخلق - من أولهم إلى آخرهم - لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته لم يكن لهم قدرة ولا وسع في ذلك، فتبارك الرب العظيم الواسع العليم الحميد المجيد الشهيد المحيط، وجل من إله لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده، فهذه الآية دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الحوادث» اهـ.

وحين يعطي المؤمن هذه الآية بعض حقها من التدبر فإنه ينكسر لله - عزَّ وجلَّ -، ويعرف قدر نفسه ويصف نفسه بما وصف الله - عزَّ وجلَّ - به الإنسان: ﴿**إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾ (الأحزاب:٧٢)، ولأيقن أن علمه لا يساوي أي شيء، كما قال الخضر لموسى ﷺ حين رأى عصفورًا

يشرب من البحر: «**يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلاَّ مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ بِمُنْقَارِهِ مِنَ البَحْرِ**»[1] .

فالمؤمن دائم الانكسار بين يدي ربه، يصف نفسه بالجهل فهو ليس أفضل من رسول الله ﷺ بل ولا مثله ولا يدانيه، ومع ذلك فالرسول يصف نفسه بالجهل ـ مع أنه أعلم الخلق بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ حيث يقول ﷺ في دعائه: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وجَهْلِي وإِسْرَافِي فِي أَمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي هَزْلِي وَجِدِّي وَخَطَئِي وَعَمْدِي وكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي**»[2] .

فلا يصف نفسه بالعلم إلا من جَهِلَ حقيقتها وقدرها، فهذا الانكسار ـ الذي يحدثه التفكر في سعة علم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في قلب المؤمن يحميه من مرض العصر الحديث ـ الغرور بالعلم ـ الذي هو مرض الكفرة الذين

---

(١) رواه البخاري (٣٢٢٠)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٢) رواه البخاري (٦٠٣٦) واللفظ له، ومسلم وزاد فيه «**اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير**».

وصفهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بأنهم: ﴿ لا يَعْلَمُونَ ⦗٦⦘ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (الروم: ٦-٧).

هذا الغرور الذي وصل بهم إلى الإلحاد ـ والعياذ بالله ـ، فهذا الفيلسوف الألماني نيتشه ـ وهو من الملحدين ـ يزعم أنه في عصر مولد السوبر مان وموت الإله، أي أن الإنسان في العصور السابقة حين كان ضعيفًا جاهلاً احتاج أن يخترع لنفسه إلهًا ليعتمد عليه في مواجهة المجهول، أما في عصر العلم فإنه صار قادرًا على مواجهة الطبيعة، فلا حاجة للإله إذن ـ نعوذ بالله من هذا الضلال المبين ـ.

ومن العجب أنه قال هذا الكلام منذ زمن بداية الثورة الصناعية الحديثة، حين كانت علوم الإنسان بالنسبة لعلوم اليوم من السذاجة بمكان، فمن ضمن ما كانوا يعتقدونه: أن أصغر جسيم في الكون هو الذرة، وصار هذا الاعتقاد الآن ساذجًا، لأن الذرة تتكون من عدة جسيمات، وهكذا كلما ازداد الإنسان علمًا ازداد علمًا بجهله، ولكن الغرور بالعلم يمنعه من أن يعترف بهذه الحقيقة.

انظر مثلاً إلى تضخيمهم لنجاح عمليات أطفال الأنابيب في بدايتها وكأنهم استطاعوا أن يخلقوا إنسانًا، وهذا مما يموهون به على الجهلاء السذج، فإنهم ـ والله ـ لو اجتمعوا على أن يخلقوا جناح بعوضة فلن يستطيعوا، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج:٧٣-٧٤)، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ (النحل: ٢٠-٢١).

فالمؤمن حين يستحضر سعة علم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لابد أن يقطع بجهله، فلا يغتر بالعلم الإنساني المحدود الذي هو بالنسبة لعلم الله جهل، كما أن عز الإنسان بالنسبة لعز الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ذل، وغناه بالنسبة لغنى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فقر، وقوته بالنسبة لقوة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ضعف، وقدرته بالنسبة لقدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عجز، قال

تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨).

ومن الثمار المباركة للإيمان بسعة علم الله - عزَّ وجلَّ - كذلك أن يَرُدَّ الإنسان علم ما لم يعلم إلى عالمه - عزَّ وجلَّ -، ولا يدعي علم ما لم يعلم، وهذا السلوك غاية في الأهمية لدرجة أن موسى عليه السلام ساح في الأرض ليتعلمه ويستحضره في كل لحظة، فقد أمره الله - عزَّ وجلَّ - أن يسيح في الأرض طلبًا للعلم حين سُئل عن أعلم أهل الأرض فقال: «أنا» ولم يقل: الله أعلم، فنزل عليه العتاب من الله في ذلك، قال ﷺ: «إن موسَى قامَ خطيبًا في بني إسرائيلَ، فَسُئِل: أيُّ الناسِ أعلمُ؟ قال: أنا، فعتَبَ اللهُ عليه إذْ لم يَرُدَّ العلمَ إليه، فأوحى اللهُ إليه إنَّ لي عبْدًا بمَجْمَعِ البحرينِ هو أعلمُ منكَ»[1].



(١) البخاري (٣٤٠١).

فصل

إن علم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يشمل الموجودات فقط، بل يشمل المعدومات كذلك، فهو سبحانه يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، كما قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ... ﴾ (الأنعام: ٢٨)، وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ (التوبة: ٤٧)، وقال: ﴿ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ (الكهف: ٨٠)، مع أن الغلام كان صغيرًا لم يكبر بعد، ولكن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ علم أنه لو كبر لصار كافرًا عاقًا لوالديه.

وإيمان المؤمن بهذا له أثره الواضح في سلوكه، فإنه لن يندم على ما فاته ولن يتحسر كما يتحسر الكافرون، قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ (آل عمران: ١٥٦)، وجعل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من ادعى علم ما لم يكن .. من

المنافقين ﴿الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران:١٦٨)، ولذلك حذرنا رسول الله ﷺ من ذلك فقال: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجَزْ، فَإِذَا كَانَ أَمْرٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ. فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[1].

فالمؤمن إذا أيقن أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحده هو مَنْ عنده علم ما لم يكن، فإنه لن يتحسر على شيء فاته، ثم هو أيضًا لن يقترح على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بأن يقول: لو غَيَّرَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كذا من الأوضاع لكان كذا، لا بل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحده هو الذي يعلم لو تغيرت الأوضاع ماذا سيكون.

فصل

وحتى لا نخطئ في فَهم المرتبة الأولى من مراتب الإيمان بالقدر ـ وهي مرتبة العلم ـ لابد أن نعلم أن الله

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٣).

ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يحاسب العباد على علمه السابق فيهم، بل يحاسبهم على علمه بما وقع منهم من أفعالهم التي فعلوها باختيارهم، كما قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ (محمد: ٣١)، قال أهل العلم بالتفسير: يعلم علمًا يحاسبهم عليه. والله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو الرقيب الشهيد على ما يفعل عباده، ثم يحاسبهم يوم القيامة على علمه بما وقع منهم وهذا له أعظم الأثر في سلوك المؤمن، لأنه لو استقر في نفسه لارتقى به إلى أعلى درجات الدين، وهي درجة الإحسان ـ أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ـ، ولذلك ربى لقمانٌ ابنَه على هذا المعنى حين قال له: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (لقمان: ١٦)، واسم اللطيف يدل على علمه بما خفي من الأشياء، والخبير يدل على العلم المتقن، فلو كانت الفعلة التي يفعلها الإنسان مقدار ذرة أو مقدار خردلة، وكانت في داخل صخرة أو في

السموات أو في الأرض فسوف يأتي بها الله ـ عز وجلَّ ـ لأنه لطيف خبير، وسوف يحاسب عليها.

لو تربى المؤمن على ذلك لزاد في قلبه الحياء من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فلا يعصيه، ولزاد في قلبه الإخلاص.

إذا ما خَلَوتَ الدهرَ يوماً فلا تَقُلْ خَلَوتُ ولكنْ قُل: عليَّ رقيبُ
ولا تحسَبَنَّ اللهَ يغفُلُ ساعةً ولا أن ما تُخْفيه عنه يَغيبُ

وإذا تربى المؤمن أيضًا على أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو الرقيب الشهيد فلن يعبأ بكيد أعدائه ومكرهم، لأن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول: ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ** ﴾ (إبراهيم: ٤٢)، وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ **فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ** ﴾ (الأعراف: ٧)، فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد أحاط علمه بما يمكرون وما يكيدون، ولذلك فهو يتولى أولياءه ويحفظهم من كيدهم، قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ **إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** ﴾ (آل عمران: ١٢٠).

ثانيًا ـ الكتابة

المرتبة الثانية من مراتب الإيمان بالقضاء والقدر هي أن نؤمن أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد كتب كل شيء، قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ**[1] ﴾ (يس: ١٢)، ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾ (الأنعام: ٣٨).

وقد بيَّن القرآن الكريم هذه المرتبة وبيَّن الثمار العظيمة المباركة المترتبة على الإيمان بها، قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ (الحديد: ٢٢-٢٤).

---

(١) ﴿**إِمَامٍ**﴾ هو الكتاب الذي يُؤَمُّ ويُقْصَد لمعرفة ما فيه وهو اللوح المحفوظ، ﴿**مُّبِينٍ**﴾ الذي بُيِّنَ فيه كل شيء.

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾:

أي: من قبل أن نخلقها، والضمير في ﴿ نَّبْرَأَهَا ﴾، إما أن يكون عائدًا على المصيبة ﴿ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾، أو على الأرض ﴿ فِي الأَرْضِ ﴾، أو على النفوس ﴿ أَنفُسِكُمْ ﴾، أو على الخليقة[1]، أي كل ذلك مكتوب قبل أن يخلق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هذه الخليقة كلها: (الأرض والنفوس والمصائب)، كما في الحديث: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»[2].

﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾:

أي: سهل وذلك لعظيم قدرته، فقد أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ القلم فجرى في تلك الساعة بما هو كائن.

---

(١) وهو ما رجحه ابن كثير ـ رحمه الله ـ.
(٢) سبق تخريجه (ص١٤).

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾:

وبعد أن بيَّن ـ عزَّ وجلَّ ـ هذه الحقيقة ذكر الآثار السلوكية المترتبة على الإيمان بها، فمرض الأسى والحزن[1]

---

(١) **أنواع الحزن: (أ) فطري:** لما يحدث للعبد من ألم ومصائب، فهذا لا لوم فيه، فهو علامة من علامات رقة القلب ووجود الرحمة في قلب العبد، وعدم قسوته، دخل رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم وهو يجود بنفسه فجعلت عَيْنا رسول الله ﷺ تَذْرِفَان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وأنت رسول الله؟ فقال ﷺ: **«يَا ابْنَ عوْفٍ إنَّها رحمةٌ»**، ثم قال: **«إنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إلاَّ مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وإنَّا لِفِرَاقِكَ يَا إبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُون»** (رواه البخاري: ١٣٠٣، ومسلم: ٢٣١٥).

وعن أبي هريرة قال: أتى رسول الله ﷺ قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله فقال رسول الله ﷺ: **«اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي ـ عزَّ وجلَّ ـ فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا، فَأُذِنَ لِي»** (رواه أبو داود: ٣٢٣٤، والنسائي: ٢٠٣٤، وابن ماجه: ١٥٧٢، وصححه الألباني: ٧٧٢، «الإرواء»).

(ب) ممدوح: وهو الذي يكون لفوات طاعة من الطاعات كما قال تعالى: **﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾** (التوبة: ٩٢)، ولكنه لا ينبغي أن يؤدي إلى التثبيط عن طاعة الله.

(جـ) مذموم: وهو الذي يتضمن عدم الرضا بقضاء الله، والاعتراض عليه.

مرض قد يدمر الإنسان، ولذلك جاء النهي عنه في القرآن، قال تعالى: ﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٩)، وقال: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا... ﴾ (التوبة: ٤٠)، فالشيطان يحرص على أن يقذف مرض الحزن والأسى في قلوب المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا... ﴾ (المجادلة: ١٠)، ولذلك لا يستسلم المؤمن أبدًا لهذا الشعور، لأنه من الشيطان، فإذا فاته شيء تذكر قول الرسول ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ»[1].

هكذا يَكْسِرُ الإيمانُ بقضاء الله السابق دائرة الشقاء التي يدور فيها كثير من الناس، حيث يجترون الذكريات لتجديد الأحزان، في حين ينسون نعم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عليهم التي

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦)، والطبراني (١٢٩٨٨)، وأبو يعلى (٢٥٥٦)، وصححه الألباني (٥٣٠٢) «المشكاة».

يتمرغون فيها صباح مساء، كما وصف الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الإنسان بذلك فقال: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (العاديات: ٦)، أي يعد المصائب وينسى نعم ربه (ذكره ابن كثير عن الحسن)، وهذا من أعظم الأدلة على أن السعادة ـ التي هي مطلب كل إنسان ـ لا تكون أبدًا بالأسباب الظاهرة من مال وجاه وسلطان وملك.. وأنها ليست إلا لعباد الله المؤمنين.

ومن آثار الإيمان بكتابة المقادير في إزالة مرض الأسى والحزن: أن العبد إذا استحضر أنه لم يكن شيئًا مذكورًا يوم قدر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ المقادير علم أنه غير مستحق للنعم التي أنعم الله بها عليه، بل هي بمحض فضل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ورحمته، فإذا زالت منه لم يحزن؛ لأن الله مالكها والمتفضل بها هو الذي سلبها.

وهذا المعنى هو الذي استحضرته أم سليم ﵂ حين فقدت ابنها، فقالت لزوجها: «يَا أَبَا طَلْحَةَ، أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ

قَوْمًا أَعَارُوا عَارِيَتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُمْ أَلَهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهُمْ؟ قالَ: لاَ، فَقَالَتْ: فَاحْتَسِبْ ابْنَكَ»[1].

فالإنسان لا يصل إلى السعادة والطمأنينة في هذه الحياة إلا بالإيمان بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ والتسليم لقضائه وقدره.

﴿ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾:

﴿ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾، أي بما أعطاكم، سواء من الدنيا أم من الدين، والفرح هنا ليس هو الفرح المحمود الذي يكون بنعمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والتحدث بها، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى: ١١)، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ (المائدة: ١١)، وقال: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة: ٤٠)، بل المؤمن مطالب بأن يفرح بفضل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا

---

(١) رواه البخاري (١٣٠١، ٥٤٧٠)، ومسلم (٢١٤٤) واللفظ له.

يَجْمَعُونَ ﴾ (يونس:٥٨)، ولكن المرض أن ينشغل الإنسان بالنعمة عن المنعم، أو ينسب الفضل لغير صاحبه.

ومنه الفرح المذموم بأن ينسب الفضل لنفسه كفرح قارون: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ (القصص:٧٦-٧٨)، أو كما قال قائل: ﴿ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ (فصلت:٥٠)، ولذا قال سبحانه عقب: ﴿ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾:

﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾:

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: ﴿ مُخْتَالٍ ﴾؛ أي متكبر فظ معجب بنفسه، ﴿ فَخُورٍ ﴾ بنعم الله ينسبها إلى نفسه وتطغيه وتلهيه، كما قال تعالى: ﴿ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ (الزمر:٤٩). اهـ.

فالفخر ينشأ عن رؤية النفس بعين الكمال والرضا عنها، وينشأ عن عدم العلم بقدر الله، وأنه ما من خير فيه العباد إلا من الله.

فالكبر والفخر أمراض إبليسية، فإبليس هو أول من نسب الفضل لنفسه قائلاً: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ (الأعراف: ١٢)، ولذلك فإن هذه الأمراض مدمرة للإنسان تجعله من أول من تسعّر بهم النار، وإن كان في ظاهر الأمر من الصالحين، لأنه أراد أن ينسب الفضل له، فَجَاهَدَ هُوَ لِيُقَالَ: هُوَ جَرِيءٌ، وَتَعَلَّمَ وَقَرَأَ لِيُقَالَ هُوَ عَالِمٌ وَقَارِئٌ، وَتَصَدَّقَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ[1]. أما المؤمن بكتابة المقادير قبل خلق السموات

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَيْهِ، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ هُوَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ القُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ =

والأرض فإنه لا يصاب بهذه الأمراض، فهو لا يختال في نفسه ولا يعجب بها؛ لأنه يعلم أنه لم يكن شيئًا مذكورًا يوم قدر الله - عزَّ وجلَّ - أن يكون له من النعم والمواهب والقدرات ما يكون.

فهو لا يعجب ولا يختال بماله لأن المال مال الله - عزَّ وجلَّ -، قال تعالى: ﴿ **وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ** ﴾ (النور:٣٣)، وقال: ﴿ **وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** ﴾ (الحديد:٧)، ولا يعجب بأية نعمة؛ لأن الله - عزَّ وجلَّ - قال: ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** ﴾ (النحل:٥٣)، حتى أعماله

= **وَقَرَأْتُ فِيكَ القُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ العِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ المَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»** رواه مسلم (١٩٠٥)، والنسائي (٣١٣٧).

الصالحة لا يعجب بها لأنها مكتوبة قبل أن يخلق هو، فأي فضل له في ذلك، كما يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «فمن الذي شفع لك في الأزل حيث لم تكن شيئًا مذكورًا، حتى سماك باسم الإسلام، ووسمك بعلامة الإيمان، وجعلك من أهل قبضة اليمين، وأقطعك في ذلك الغيب عمالات المؤمنين»، أي: أن أعمال المؤمنين إقطاع من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ولذلك يقول المؤمنون:

واللهِ لولا اللهُ ما اهتَدَيْنا ولا تصدَّقْنا ولا صَلَّيْنا

فإذا دخلوا الجنة علموا أن ذلك بفضل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فحمدوه عليه: ﴿ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** ﴾ (الأعراف: ٤٣).

والذي يؤمن بما سبق به القلم، لا يفخر على الناس بأية نعمة؛ لأنه يعلم أنه حين كتبت له هذه النعمة كان مثلهم عدمًا محضًا ليس له أي فضل يتميز به عليهم.

ولذلك لما كفر صاحب الجنتين بالله - عزَّ وجلَّ - وافتخر على صاحبه بالنعم، قال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (الكهف: ٣٤)، لاحظ كيف نسب الفضل لنفسه بقوله: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ...﴾، وافتخر على صاحبه بما أنعم الله - عزَّ وجلَّ - عليه، ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾، فذكره بأصل خلقته الذي لا يدعو إلى الفخر، ثم هو متساوٍ فيه وجميع البشر؛ ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (الكهف: ٣٥-٣٨).

فلاحظ كيف نسب المؤمن الفضل إلى الله - عزَّ وجلَّ -، فالمؤمن لا يفخر على الناس ولا يتكبر عليهم؛ لأنه يعلم أن كل ما عنده قُدِّر له قبل أن يخلق.

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾:

هذا مرض آخر يعالجه الإيمان بكتابة المقادير وأنها سابقة على خلق الإنسان، فإن الإنسان إذا استحضر أن المال ماله حصله بقدراته وخبراته دعاه ذلك إلى الحرص عليه والبخل به، ثم هو إذا نسي أن رزق غد مكتوب دعاه القلق على المستقبل إلى كنز المال.

أما إذا استحضر أن القلم قد جرى بما هو كائن، علم أن المال مال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، هو الذي كتبه له، فكيف يمنع حق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيه؟ وإذا علم أن رزق غد مكتوب، لن يزيده حرص حريص، ولن ينقصه كراهية كاره . . انشرح صدره بالنفقة.

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: «﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾، أي: يجمعون بين الأمرين الذميمين اللذين كل منهما كاف في الشر، البخل: وهو منع الحقوق الواجبة، ويأمرون الناس بذلك، فلم يكفهم بخلهم حتى أمروا الناس بذلك وحثوهم على هذا الخلق

الذميم بقولهم وفعلهم وهذا من إعراضهم عن طاعة ربهم وتوليهم عنها ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله فلا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئًا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ الذي غناهُ من لوازم ذاته، الذي له ملك السموات والأرض وهو الذي أغنى عباده وأقناهم، الحميد الذي له كل اسم حسن ووصف كامل، وفعل جميل يستحق أن يحمد عليه ويُثْنَى ويعظم عليه» اهـ.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾:

فذكر سبحانه في ختام الآيات اسمين من أسمائه سبحانه وهما ﴿الْغَنِيُّ﴾، و﴿الْحَمِيدُ﴾.

فـ﴿الْغَنِيُّ﴾ لا يحتاج إلى شيء، ولا تزيد في ملكه طاعة الطائعين ولا تنقصه معصية العاصين من عباده، وكل خلقه مفتقرون إليه لا غنَى بهم عن بابه وفضله طرفة عين، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥)، فهو سبحانه غني بذاته عن كل ما سواه، أغنى

عبادَه المؤمنين بذكره والقرب منه وعبادته ـ عزَّ وجلَّ ـ ومن لم يحصل على ذلك فهو الفقير في الحقيقة، فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ جعل غنى عباده المؤمنين بما أعطاهم من الإيمان به وقال ﷺ: «لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْس»[1]، فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو الغني بذاته ويغني من يشاء من عباده وليس الغِنَى عن كثرة المال وكثرة أعراض الدنيا، ولكن غنى النفس بما أعطاه الله من عبوديته سبحانه والقرب منه فعند ذلك لا تلتفت إلى غيره.

قال النبي ﷺ فيما يَرْوي عن الله ـ تبارك وتعالى ـ إنه قال: «يا عِبَادِي إنِّي حرَّمتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُم مُحرَّمًا؛ فَلا تَظَالموا، يَا عِبَادِي كُلُّكُم ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ؛ فَاسْتَهْدُونِي أهْدِكُم، يَا عِبادِي كُلُّكُم جَائعٌ إلا مَنْ أطْعَمتُهُ؛ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُم، يَا عِبَادِي كُلُّكُم عَارٍ إلا مَنْ كَسَوتُهُ؛ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُم، يَا عِبَادِي إنَّكُم تُخْطِئُونَ بِاللَّيلِ

---

(١) رواه البخاري (٦٤٤٦)، [(٢٧٦) «الأدب المفرد»]، ومسلم (١٠٥١).

والنَّهار، وأنَا أغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أغْفِرْ لَكُم، يَا عِبَادِي إنَّكُم لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَو أنَّ أوَّلَكُم وَآخِرَكُم وَإنْسَكُم وَجِنَّكُم كَانُوا عَلَى أتْقَى قَلبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُم مَا زَاد ذَلك فِي مُلكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَو أنَّ أوَّلَكُم وَآخِرَكُم وَإنْسَكُم وَجِنَّكُم كَانُوا عَلَى أفْجَرِ قَلبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُم مَا نَقَصَ ذَلِك مِنْ مُلكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَو أنَّ أوَّلَكُم وَآخِرَكُم وَإنْسَكُم وَجِنَّكُم قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَألُونِي فَأعْطَيتُ كُلَّ إنْسَانٍ مَسْألتَهَ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِندِي؛ إلا كَمَا يَنقصُ المِخْيَطُ إذَا أُدْخِلَ البَحْرَ، يَا عِبَادِي إنَّمَا هِي أعْمَالُكُم أُحْصِيهَا لَكُم ثُمَّ أُوَفِّيكُم إيَاهَا؛ فَمَن وَجَدَ خَيْرًا؛ فَلْيَحمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ؛ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَه» [1].

﴿الْحَمِيدُ﴾: الذي تثبت له جميع أنواع المحامد أي الذي له الحمد، المستحق للحمد، وهو المحمود فهو حمد

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

نفسه ـ عزَّ وجلَّ ـ وأمر عباده أن يحمدوه، فله الحمد على كمال أسمائه وصفاته، وكماله في ذاته، وله الحمد على نعمه وإفضاله على عباده، وله الحمد من كل وجه، وله الحمد في الأولى والآخرة، وله الحمد على كل حال على المحبوب للعباد والمكروه، لا يحمد على مكروه سواه، وذلك لما في تقدير ذلك من الحكمة، قال النبي ﷺ: **«أفْضَلُ الذِّكْرِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الحَمْدُ للهِ»**[1] ، وهذا يدلك على أن الثناء على الله دعاء له فهو دعاء عبادة وثناء يحبه الله تعالى بل ويفضله على دعاء المسألة، وابتدأ الله كتابه بالحمد وختم الأمر بالحمد ﴿ **وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ**

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٨٣) وقال: حديث حسن، وابن حبان (٨٤٦)، والحاكم (١٨٣٤، ١٨٥٢)، والبيهقي في «الشعب» (٤٣٧١)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٦٦٧)، وصححه الألباني (٧٧٠٠) «صحيح الجامع».

لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الزمر: ٧٥)، وجعل آخر كلام أهل الجنة في كل مرة ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس: ١٠).

قال الحسن: إن أهل النار دخلوا النار وإن حمد الله لفي قلوبهم لا يجدون إلى غير ذلك سبيلا، أي لا يستطيعون إلا أن يقروا بأن الله - عزَّ وجلَّ - محمود على ما فعل حتى من إدخالهم النار، وإن كانوا يعذبون ويتألمون ولكنهم يرون عدله وحكمته ويرون أنه وضع الأشياء في مواضعها ولا يملكون غير ذلك..

وهل يثبت الحمد إلا لذي العزة والجلال، فله الحمد كما يقول وخيرًا مما نقول لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه، وكيف يحصي العبد الضعيف ثناء على العلي الكبير؟ كان النبي ﷺ يقول: «**اللهم لك الحمدُ كما نقولُ وخيراً مما نقولُ**»[1]، فإن العبد لا يحصي الثناء على الله لأنه لا يعلم كيف هو إلا هو - عزَّ وجلَّ - فكيف يحصي العبد ثناء على

(١)رواه الترمذي (٣٥٢٠) وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه وليس إسناده بالقوي، وضعفه الألباني (٤/ ١٢) «ضعيف الجامع».

الله ـ سبحانه وتعالى ـ فمهما أثنى العبد على ربه لم يحصِ الثناء بل هو يستحق أكثر من ذلك ـ عزَّ وجلَّ ـ «**لا نُحصي ثناءً عليكَ أنتَ كَمَا أثْنَيْتَ عَلَى نفسِك**».

سبحان الله وبحمده، جعل الحمد أثقل ما في ميزان العبد يوم القيامة على لسان نبيه ﷺ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمَانِ، وَالحَمْدُ للهِ تَمْلأُ المِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ للهِ تَمْلآنِ أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ، وَالصَّلاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالقُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا**»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ**»[٢].

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣)، وأحمد (٢٢٩٥٣)، والدارمي (٦٥٣)، والبيهقي (١٨٥).

(٢) رواه البخاري (٧١٢٤)، ومسلم (٢٦٩٤).

وذلك لأن العبد إذا سبَّح الله فبحمده سبحه .. سبحه متلبسًا بحمده كما روي في الأثر أن داود ﷺ قال: «**يا ربِّ كيفَ أشكُرُك وشكرُك نعمةٌ تحتاج إلى شُكرٍ، فقال: يا داودُ الآنَ شكرْتَني**»[1]، وهذا حسَنُ المعنى فالعبد يسبح الله وبحمْدهُ متلبسًا بحمده لذا ورد تكرار «سبحان الله وبحمده» في الأذكار المتعددة في الركوع والسجود وأذكار الصباح والمساء وفي غير موضع كما كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه: «**سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِك اللهمَّ اغفرْ لي**»[2]، بعد أن أنزل الله عليه: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (النصر: ٣).

وخاصة عباد الله الصالحين يحمدون ربهم:

فالملائكة يسبحون بحمد ربهم، والنبي ﷺ يظهر فضله في المقام المحمود بمحامد يثني بها على الله لم يفتح الله بها على أحد قبله، كما ورد في الحديث «**فأقعُ ساجدًا لربي ـ عزَّ**

---

(١) ذكره الألوسي بنحوه في «روح المعاني» (١/ ٧٦)، وابن كثير (٢/ ٧١١).
(٢) رواه البخاري (٧٦١، ٧٨٤)، ومسلم (٤٨٤، ٧٧١).

وجلَّ. ثم يَفتَحُ عليَّ من محامِدِه وحُسنِ الثناءِ عليه شيئًا لم يفتحْه على أحَدٍ قَبْلي»[١]، فكلما حمد العبد ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ علا قـدره عند الله، وكلما أثنى علـى الله قربه الله ورفع منزلته، قـال النبي ﷺ: **«إنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أنْ يَأكُلَ الأكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»**[٢]، وشـعور العـبـد بأن هذه النعـمة من الله عـظيمـة وأن الله سبحانه هو المـتفضل بها من غير مقـابلة من العبد الذي لا يسـتطيع شكرهـا ولا الثناء على الله ـ عـزَّ وجلَّ ـ بهـا مما يجعل حمده وشكره لله ـ عزَّ وجلَّ ـ مقبولاً.

فـهـذا بعض مـا يتـعلق بـهـذين الاسـمين الكريمين ﴿الْغَنِيُّ﴾، و﴿الْحَمِيدُ﴾.

هكذا بيَّن الله ـ عـزَّ وجلَّ ـ في هذه الآيات من سـورة الحديد أن الإيمان بالقـضاء والقدر يعـالج خمسـة أمراض:

---

(١) رواه البخاري (٤٤٣٥، ٧٠٠٢)، ومسلم (١٩٤).
(٢) رواه مـسلم (٢٧٣٤)، والتـرمـذي (١٨١٦)، والنسـائي (٦٨٩٩)، وأحمد (١٢١٨٩)، والبيهقي في «الشعب» (٦٠٤٦).

الأسى والحزن، والفرح ـ وهو العجب والغرور والكبر ـ والاختيال، والفخر، والبخل.

هذه الأمراض التي تُسبب الشقاء والتعاسة للإنسان ومَنْ حَوْلَهُ، فإذا برئ منها الإنسان ذاق طعم الراحة والطمأنينة.

ونحن إذ نعرض مراتب الإيمان بالقدر من خلال الأدلة عليها ـ حتى لا نُحرَمَ من الآثار الإيمانية المترتبة عليها ـ لا نغفل أوضح الأحاديث النبوية في الدلالة على سبق كتابة المقادير، وهو حديث ابن مسعود ﷺ الذي في الصحيحين، قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق، قال: «إنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ المَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، فَوَاللهِ الذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ

أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»[1].

فإن لهذا الحديث ثمارًا عظيمة الأهمية في سلوك المؤمن إذا أيقن أن أجله ورزقه وعمله وشقاوته أو سعادته كل ذلك مكتوب وهو في بطن أمه فإن ذلك سيغير سلوكه في الواقع تغييرًا جذريًا.

١ ـ الأجل:

فإذا عَلِم العبد أن أجله مكتوب ولن يتقدم أو يتأخر فلن يصيبه داء الجبن الذي كان رسول الله ﷺ يتعوذ منه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ وَالبُخْلِ**»[2]، ولن يُحْجِمَ في المواطن التي أمره الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالإقدام فيها، سواء في الجهاد

(١) سبق تخريجه (ص١٧).

(٢) رواه البخاري (٢٨٢٢، ٦٣٦٥)، ومسلم (٢٧٠٦)، والترمذي (٣٥٦٧)، وأبو داود (١٥٥٥)، والنسائي (٥٤٩٦).

في سبيل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والذَّوْد عن حياض الإسلام، أم في الدعـوة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بـأن يقول كلمـة الحق لا يخاف في الله لومة لائم.

وكذلك إذا عـلم العبد أن أجـله مكتوب فـهو لا يدري أقـريب هو أم بعيـد، وأن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحـده هو الذي يعلم متى ستوافـيه منيـته فلن يسوِّف بـالتوبة[١]، وسيـبادر بالأعمـال الصالحة؛ لأنه لا يدري هل كتب له أن يعـيش غدًا أم يموت اليوم؟ ولذلك كـانت وصية عبـد الله بن عمر: «إذا أصْبحْتَ فَلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح»[٢].

---

(١) وهذه الفائدة هي أيضًا من الفوائد العملية المترتبة على الإيمان بعلم الله السابق، وذلك أن موعد الموت من مفاتيح الغيب التي استأثر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بعلمها، وحقيقة التسويف أنه ادعاء علم شيء عن الأجل.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٣٣)، وابن حبـان (٦٩٨)، والطبراني في «الكبير» (١٣٥٣٧)، والبـيهـقي في «شعب الإيمان» (١٠٢٤٤)، وصـححـه الألباني (٣٣٤١) «صحيح الترغيب والترهيب».

٢ ـ الرزق:

إذا أيقن العبد أن رزقه مكتوب قبل أن يولد فلن يداهن في دين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خوفًا على ما يسمونه (لقمة العيش)، ولن يبيع دينه بعرض من الدنيا، كحال أولئك الذين وصفهم الرسول ﷺ بقوله: «**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا**»[1].

نُرقِّعُ دنيانا بتمزيقِ ديننا
فلا دينُنا يَبْقَى ولا ما نُرَقِّعُ

وكذلك إذا أيقن العبد أن الرزق مكتوب فلن يسارع إلى أخذه من الحرام مدعيًا ضيق سبل الحلال؛ فإن سعيه لن يزيد على ما قدر له، كما قال النبي ﷺ: «**إنَّ رُوحَ القُدُسِ قَدْ**

---

(١) رواه مسلم (١١٨)، والترمذي (٢١٩٥)، وابن حبان (٦٧٠٤)، والطبراني في «الأوسط» (٢٧٧٤).

نَفَثَ فِي رَوْعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حَرُمَ»(١) .

فالرسول ﷺ لم يأمرك بالجلوس في بيتك وانتظار الرزق اعتمادًا على القدر، بل أمرك بطلب الرزق، ولكن لابد أن يكون طلبًا جميلاً بأن تأخذ ما أحل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وتدع ما حرم عليك، فإذا اتقيت الله ـ عزَّ وجلَّ ـ جعل لك مخرجًا، ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (الطلاق: ٢-٣) .

وكذلك إذا أيقن العبد أن الرزق مكتوب فلن يذل نفسه في طلبه بل يستغني بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وهذا المعنى هو الذي ربى النبي ﷺ عبد الله بن عباس ﷺ عليه قائلاً: «يَا غُلامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية»، وصححه الألباني (٢٨٦٦)، «الصحيحة» (٣٨٤٨)، «صحيح الجامع الصغير».

تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ تَعَالَى لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[1] .

إن الذي يتربى على هذه المعاني لابد أن يصغر الناس في عينه، وبذلك يرتفع عن هذه الأرض بما معه من معاني الإيمان العظيمة.

أما إن ضَعُفَ اليقين عند العبد فسيكون إرضاء الناس بسخط الله كما روى أبو سعيد ﷺ - مرفوعًا -: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ، أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ، إِنَّ رِزْقَ اللهِ لاَ يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلاَ يَرُدُّهُ

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني (٧٩٥٧) «صحيح الجامع».

كَراهِيَةُ كَارِهٍ، وإنَّ اللهَ بِحِكْمَتِهِ جَعَلَ الرَّوحَ والفَرَحَ فِي الرِّضا واليَقِينِ، وَجَعَلَ الهَمَّ والحَزَنَ فِي الشَّكِّ والسَّخَطِ»[1].

والحديث وإن كان ضعيفًا سندًا إلا أن معناه صحيح، قال ابن مسعود ﷺ: «اليَقِينُ الإيمانُ كُلُّهُ»[2].

قوله ﷺ: «أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ»:

أي: تؤثر رضاهم على رضا الله، وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته ما يمنعه من استجلاب رضا المخلوق بما يجلب له سخط خالقه وربه ومليكه، الذي يتصرف في القلوب ويفرج الكروب ويغفر الذنوب، وبهذا الاعتبار يدخل في نوع من الشرك، لأنه آثر رضا المخلوق على رضا الله، وتقرب إليه بما يسخط الله، ولا يسلم من هذا إلا من سلمه الله، ووفقه لمعرفته ومعرفة ما

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٥/١٠٦-١٠/٤١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠٧)، وضعفه الألباني (٢٠٠٩) «ضعيف الجامع».

(٢) رواه البخاري معلقًا (١/٤٥)، والطبراني في «الكبير» مرفوعًا (٨٥٤٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/٣٤).

يجوز على الله من إثبات صفاته على ما يليق بجلاله، وتنزيهه تعالى عن كل ما ينافي كماله، ومعرفة توحيده في ربوبيته وإلهيته، وبالله التوفيق.

قوله ﷺ: «وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ»:

أي: على ما وصل إليك من أيديهم، بأن تضيفه إليهم وتحمدهم عليه، فإن المتفضل في الحقيقة هو الله وحده الذي قدره لك وأوصله إليك، وإذا أراد أمرًا قيَّضَ له أسبابًا، ولا ينافي هذا حديث: «**مَنْ لاَ يَشْكُرِ النَّاسَ لاَ يَشْكُرِ اللهَ**»[1] ، لأن شكرهم إنما هو بالدعاء لهم، لكون الله ساقه على أيديهم، فتدعو لهم أو تكافئهم، لحديث: «**مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**»[2] .

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٤٤)، والترمذي (١٩٥٤)، وعبد الله بن أحمد (٢/ ٢٩٥)، وصححه الألباني (٧٧١٩) «صحيح الجامع».

(٢) رواه أبو داود (١٦٧٢)، وابن حبان (٣٤٠٨)، وصححه الألباني (١٥٨) «صحيح الأدب المفرد»، (٢٥٤) «الصحيحة».

قوله ﷺ: «وأنْ تذمَّهُمْ علَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ»:

لأنه لم يقدر لك ما طلبته على أيديهم، فلو قدره لك لساقته المقادير إليك، فمن علم أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده، وأنه هو الذي يرزق العبد بسبب وبلا سبب، ومن حيث لا يحتسب، لم يمدح مخلوقًا على رزق، ولم يذمه على منع، ويفوض أمره إلى الله، ويعتمد عليه في أمر دينه ودنياه، وقد قرر النبي ﷺ هذا المعنى بقوله ﷺ:

«إنَّ رزْقَ اللهِ لاَ يَجُرُّهُ حرْصُ حَريصٍ، ولاَ يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ»:

كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (فاطر: ٢).

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقنًا لا بوعده ولا برزقه، فإنه إنما يحمل الإنسان

على ذلك، إما ميل إلى ما في أيديهم فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم، وإما ضعف تصديقه بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة، فإنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مؤونتهم، وإرضاؤهم بما يسخطه إنما يكون خوفًا منهم ورجاء لهم، وذلك من ضعف اليقين، وإذا لم يقدَّر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك، فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا ذممتهم على ما لم يقدِّر كان ذلك من ضعف يقينك، فلا تخفْهم ولا ترجُهم ولا تذمَّهم من جهة نفسك وهواك، ولكن من حمِدَه اللهُ ورسوله منهم فهو المحمود، ومن ذمه الله ورسوله منهم فهو المذموم، ولما قال بعض وفد بني تميم: «أيْ مُحَـمَّدُ أعطِني، فإن حَمْدي زَينٌ وَذَمِّي شَيْنٌ»، قال النبي ﷺ: «ذَاكَ اللهُ - عزَّ وجلَّ -»[1].

(١) رواه الترمذي (٣٢٦٧)، وأحمد (١٦٠٣٤)، وصححه الألباني.

وعن عائشة ﵂؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنِ التَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنِ التَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ**»[(١)].

قال شيخ الإسلام: «وهذا من أعظم الفقه في الدين، فإن من أرضَى الله بسخطهم كان قد اتّقاه وكان عبدَه الصالح، والله يتولى الصالحين، والله كاف عبدَه ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**﴾ (الطلاق: ٢-٣)، والله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب. ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾ (الزمر: ٣٦).

وفي حديث عائشة ﵂: عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم على الله، وأن العقوبة قد تكون في الدين، عياذًا

---

(١) رواه الترمذي (٢٤١٤)، وابن حبان (إحسان -٢٧٦)، وصححه الألباني (٦٠٩٧) «صحيح الجامع».

بالله من ذلك، كما قال تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (التوبة: ٧٧) [١] اهـ.

فمن ضعف اليقين في القضاء والقدر أن تذم الناس على ما لم يؤتك الله، أي تنسب للمخلوق أنه منعك شيئًا من الدنيا، حتى وإن كان سارقًا أو مغتصبًا فهو ـ وإن كان قد أخذ حقك ـ لم يأكل رزقك، بل هو رزقه هو، وإن كان آثمًا بذلك، فإن هذا لا يمنع أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد كتب أن هذا رزقه سيأخذه من حرام، وهذا يجعلك تحتمل المصيبة وتصبر عليها.

وتعلم أن الناس لا يملكون لك ضرًا ولا نفعًا، وأن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو الضار النافع وحده لا شريك له.

---

(١) من «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ.

٣ ـ العمل:

إذا علم العبد أن عمله مكتوب قبل أن يولد، فإذا كان من الحسنات؛ فإنه لن يغتر به بل ينسب الفضل لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وإن كان من السيئات فسيبادر بالتوبة منها، فإذا تاب وأناب فإنه لن يصاب باليأس من رحمة الله الذي يقعده عن سلوك سبل المعالي، وليس لأحد أن يعيِّره لأنه تاب منه.

ولكن الحذر من الاحتجاج بالقدر على الذنوب مع عدم التوبة منها؛ فإن القدر ليس بحجة في المعائب ولكنه حجة في المصائب، والذنب بعد التوبة بمنزلة المصيبة كما دل على ذلك حديث احتجاج آدم وموسى[1].

---

(١) كما في حديث احتجاج آدم وموسى ـ عليهما السلام ـ في «الصحيحين»: «قَالَ آدَمُ: فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ قَالَ: بِأَرْبَعِينَ سَنَةً. قَالَ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ (طه: ١٢١)؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ كَيْفَ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟!» قال ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى ـ أي: غلبه في الحُجَّةِ ـ ثلاثًا» (رواه البخاري: ٦٦١٤). وموسى قد لامه على الذنب والمصيبة معًا «وهي =

٤ ـ الشقاء والسعادة:

وإذا علم العبد أن من عباد الله من يعمل «**بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ؛ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا**»[١] ، خاف على نفسه من سوء الخاتمة[٢] ، ولم يأمن مكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كحال أبي بكر

= الإخراج من الجنة»، والذنب تاب منه، والمصيبة لا قدرة له عليها، فصح احتجاجه بالقدر، أما من يحتج به قبل التوبة، ويرفض التزام الشرع فهي كلمة حق يراد بها الباطل، وهو تابع لإبليس إذ قال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ (الأعراف:١٦)، وللمشركين القائلين: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ (الأنعام:١٤٨)، والله أبطل حجتهم، ولم يقبلها في الدنيا ولا في الآخرة.

(١) سبق تخريجه (ص١٧).

(٢) **فائدة:** من أسباب سوء الخاتمة:

١ ـ الإصرار على المعاصي ولو صغيرة، فهذا من أكبر أسباب سوء الخاتمة أن يصر العبد على معصية معينة ويداوم عليها ولا يتوب منها، ولذلك قال بعض السلف: «المعاصي بريد الكفر»، أي من داوم على المعاصي أوشك أن يقع في الكفر ـ والعياذ بالله ـ ولذلك اشتد خوف السلف من المعاصي صغيرها وكبيرها، فعلى العبد أن يكثر من التوبة والاستغفار لكي لا تسوء خاتمته. =

الصديق ـ وهو من هو ـ حين يقول: «لا آمن مكر الله وإن كانت إحدى قدميَّ في الجنة»، وقد قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في وصف الذين هم في جنات مكرمون: ﴿ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ (المعارج: ٢٧-٢٨)، وقال: ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٩٩)، ولذلك قال الطحاوي: «والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام»، فهذا من أعظم بواعث الخوف من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في نفس المؤمن، فلا يأمن من أن

= ٢ ـ عمل الخير وترك الشر خوفًا من كلام الناس فربما ترك الحرام خوفًا من لوم الناس له وربما فعل الطاعات لمدح الناس، فأصحاب هذا الفعل من أشد الناس تعرضًا لسوء الخاتمة.

٣ ـ أمراض قلبية في نفس العبد قد لا يعلمها إلا الله، نعم جَرَتْ رحمةُ الله الغالبة أنه لا يؤاخذ العباد بما في خفايا النفوس التي لا تظهر ولكنه آخذ طائفة قليلة بما في خفايا النفوس عدلاً منه سبحانه ليكون العباد دائمًا على خوف عظيم ووجل كبير وفي الحديث: «إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ إِصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعَ الرَّحْمَنِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ» (رواه الترمذي: ٢١٤٠، وابن ماجه: ٣٨٣٤).

يكـون من ذلك القليـل النادر الذي يقلـب الله ـ عزّ وجلّ ـ قلبـه عند الموت، فيـدعو ربه بإلحـاح واضطرار: «اللَّهُمَّ يَا مُصَـرِّفَ القُلُوبِ صَـرِّفْ قُلُوبَنَـا عَلَى طَاعَـتِكَ»[1] ، ولا يصـيبـه الغـرور بمبادئ الأمـور وظواهر الأحـوال؛ لأن الثبـات لا يكون إلا من الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (إبراهيم: ٢٧).

وإذا علم العبد أن من عبـاد الله ـ عزّ وجلّ ـ من يعمل «بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»[2] ، أثمر ذلك عنده الرجاء، فهو مهما كان مسرفًا على نفسه بالذنوب والمعاصي فيمـا سبق فإنه لا يدري لعل الله ـ عزّ وجلّ ـ قد كـتبه من

---

(١) رواه مـسلم (٢٦٥٤)، والترمـذي (٢١٤٠) بلفظ: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ».

(٢) سبق تخريجه (ص١٧).

أهل الجنة، فيبادر بالتوبة ويعمل الحسنات، فإن مات على ذلك كان من أهل الجنة.

فالله - عزَّ وجلَّ - هو الغفور الشكور، غفر لقاتل مائة نفس حين مات مقبلاً عليه منيبًا إليه، قال رسول الله ﷺ: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِن تَوْبَةٍ، فَقَالَ: لاَ، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ تَعَالَى فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ، وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوْءٍ، فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ المَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ العَذَابِ، فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ العَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ - أَيْ حَكَمًا - فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ

الأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ»، وفي رواية: «فَكَانَ إِلَى القَرْيَةِ الصَّالِحَةِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ فَجُعِلَ مِنْ أَهْلِهَا»، وفي رواية: «فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وَإِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي، وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوَجَدُوهُ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ فَغَفَرَ لَهُ»، وفي رواية: «فَنَأَى بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا»[1] .

فلا تيأس أبدًا من رحمة الله؛ فإنك إذا تبت إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قبل الموت فإنك تكون قد تبت من قريب، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ١٧).

ويثمر ذلك أيضًا ألا ينظر العبد إلى العصاة والمذنبين نظرة استعلاء واستكبار؛ فإنه لا يدري لعل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ

(١) رواه البخاري (٣٤٧٠) «الأنبياء» ومسلم (٢٧٦٦) «التوبة».

اطلع على قلب أحدهم فوجد فيه عبادة ترضيه فغفر له كل ذنوبه، كما غفر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لِبَغيٍّ من بغايا بني إسرائيل لما وجد في قلبها رحمة بكلب يلهث من العطش، إذ نزلت البئر فملأت خفها وسقت الكلب، قال ﷺ: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يَطِيفُ بِرَكِيَّةٍ قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ العَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ، فَسَقَتْهُ، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ»[1].

فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو الغفور، ودعا أعداءه وأعداء أوليائه المؤمنين للتوبة وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (البروج: ١٠)، قال الحسن: «انظروا إلى هذا الكرمِ والجودِ، قتلوا أولياءَه وهو يدْعُوهم إلى التوبةِ والمغفرةِ».

---

(١) رواه البخاري (٢٣٦٤)، ومسلم (٢٢٤٥)، **يطيف**: يدور حول، **ركية**: البئر، **بغي**: زانية، **موقها**: خفها.

فلا نجزم لأحد بجنة ولا نار، حتى وإن صد عن سبيل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وإن آذى أولياء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فلا نقول: لابد أن ينتقم الله منه، فلا تدري لعل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد كتب له التوبة، كما قال ـ عزَّ وجلَّ ـ لنبيه ﷺ ـ حين أكثر من الدعاء على أعدائه ـ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (آل عمران:١٢٨)، وأخبر النبي ﷺ أن ممن يحارب المسلمين ويقتلهم من يُختم له بالإيمان فيدخل الجنة، كما قال ﷺ : «يَضْحَكُ رَبُّنَا ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لِرَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ وَيَدْخُلاَنِ الجَنَّةَ»[١] .

فإذا نسي العبد هذه الحقيقة تعاظم الكبر في قلبه، وقد ينسى مقامه ـ أنه مقام العبودية ـ فيرفع نفسه إلى مقام الربوبية فيحكم على مَن ظاهِرُه الفجور بالنار كما حدث لذلك العابد من بني إسرائيل، قال رسول الله ﷺ : «كَانَ

---

(١) رواه البخاري (٢٦٧١) بلفظ: «يَضْحَكُ اللهُ إلى رَجُلينِ قتلَ أحدُهما الآخرَ فيدخُلانِ الجنةَ، يقاتِلُ هذا في سبيلِ اللهِ فيُقتَلُ ثم يتوبُ اللهُ على القاتِلِ فيُستَشهَدُ»، ومسلم (١٨٩٠)، والنسائي (٣١٦٥)، وابن ماجه (١٩١).

رَجُلاَنِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَآخِيَيْنِ فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي العِبَادَةِ، فَكَانَ لاَ يَزَالُ المجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ - اتَّقِ اللهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَكَ - فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ اسْتَعْظَمَهُ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، اتَّقِ اللهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَكَ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللهِ لاَ يَغْفِرُ اللهُ لَكَ وَلاَ يُدْخِلُكَ الجَنَّةَ»، وفي رواية: «فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمَا مَلَكًا، فَقَبَضَتْ أَرْوَاحُهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ العَالَمِيْنَ، فَقَالَ: لِهَذَا المُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا، أَوَ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدَيَّ قَادِرًا؟ فَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ. ولمسلم: «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لاَ أَغْفِرَ لِفُلاَنٍ؟ إِنِّي قد غَفَرْتُ لَهُ وأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»[1].

فلا نجزم لأحد بجنة ولا نار، لأن الخواتيم لا يعلمها إلا الله - عزَّ وجلَّ -.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢١)، وأبو داود (٤٧٣٣)، والطبراني (١٦٧٩)، والبيهقي (٦٦٨٨)، والبغوي (٤١٨٧).

وإذا كان الأصل في السعادة والشقاء أنهما في الآخرة في الجنة والنار، كما في الصحيحين من حديث علي بن أبي طالب ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلاَّ وَقَدْ كَتَبَ اللهُ مَكَانَهَا مِنَ الجَنَّةِ والنَّارِ، وإلاَّ وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً**»[1]، لكن لاشك أنه يدخل في جملة السعادة والشقاء واللذة والألم ما في هذه الدنيا، فإذا أيقن العبد أن السعادة والشقاء قد كتبا وهو جنين في بطن أمه لم يسْعَ لتحصيل السعادة بما يسخط الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ورَغِبَ إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في تحصيلها. وذلك بأن يعمل بطاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، مستحضرًا أن كل شيء عنده بمقدار، فيرضى بالقضاء ويرجو من ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يجعل عاقبة الألم خيرًا كثيرًا، ﴿**وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ (النساء: ١٠٤).

---

(١) رواه البخاري (٤٩٤٥)، ومسلم (٢٦٤٧) واللفظ له.

ومن الإيمان بكتابة المقادير الإيمانُ بالتقدير السنوي في ليلة القدر، قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (الدخان: ٤)، وهذا مما يدفع العبد المؤمن إلى أن يهتم بالعبادة والتضرع والدعاء في أيام العشر الأواخر من رمضان والاجتهاد لموافقة هذه الليلة وقيامها، لينال القدر العظيم من الفضل الذي يفيضه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على عباده في هذه الليلة، قالت عائشة ﵂: كان رسول الله ﷺ يَجْتَهِدُ فِي رَمَضَانَ مَا لاَ يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ، وَفِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْهُ مَا لاَ يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِه[1]، وقالت: كان رسول الله ﷺ إِذَا دَخَلَ العَشْرُ الأَوَاخِرُ مِنْ رَمَضَانَ أَحْيَى اللَّيْلَ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ، وَجَدَّ وَشَدَّ المِئْزَر»[2].

ولا نزاع بين طوائف المسلمين في إثبات المرتبتين السابقتين ـ العلم والكتابة ـ لأن العلم بهما قد انتشر في

---

(١) رواه مسلم (١١٧٥).
(٢) رواه البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤)، المئزر: الإزار؛ قيل كناية عن اعتزال النساء، وقيل المراد تشميره للعبادة.

المسلمين حتى صارا من المعلوم من الدين بالضرورة ـ الذي يستوي في علمه الصغير والكبير، والخاص والعام، والعالم والجاهل ـ ولذلك كفَّر الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ من أنكرهما، كما قال ابن عمر ﷺ فيهم: «**والذي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لأَحَدِهِمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ**»، ثم استدل بقول النبي ﷺ: «**الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ باللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[1].

ولكن النزاع بين بعض الفرق وبين أهل السنة في إثبات المرتبتين التاليتين وهما المشيئة والخلق، ولذلك نحتاج إلى أن نفصل الكلامَ في إثباتهما بشيء من التبسيط، لأن العلم بذلك من الفرائض التي يجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلمها لأنها تتعلق بركن من أركان **الإيمان** الستة وهو الإيمان بالقدر خيره وشره.

---

(١) رواه مسلم (٨)، وأبو داود (٤٦٨١) بلفظ: «**والذي يَحْلِفُ به عبدُ اللهِ ابنُ عمرَ**»، والترمذي (٢٦١٠).

ثالثاً ـ المشيئة

الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وما في الكون من حركة ولا سكون ولا حياة ولا موت ولا خير ولا شر ولا إيمان ولا كفر ولا طاعة ولا معصية ولا اتفاق ولا اختلاف ولا نصر ولا هزيمة ولا أفعال اضطرارية ولا أفعال اختيارية للعباد والمخلوقين إلا بمشيئته سبحانه وتعالى.

والله ـ عزَّ وجلَّ ـ على كل شيء قدير ـ على ما يشاء وعلى ما لم يشأ ـ، فإذا أراد شيئًا فإنما يقول له: كن، فيكون، ولا يكون في ملكه إلا ما يريد، سبحانه وبحمده.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (النحل: ٤٠)، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢).

رابعًا ـ الخلق

المرتبة الرابعة من مراتب الإيمان بالقدر هي الخلق والجعلُ، بمعنى: أن نؤمن بأنه ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الزمر:٦٢)، حتى أفعال العباد الاختيارية، فهو الذي جعل هذا مؤمنًا وهذا كافرًا، وجعل هذا طائعًا، وجعل هذا عاصيًا، فهو ـ سبحانه ـ الذي جعل ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (الأنعام:١٢٣).

وهو الذي جعل ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (الفرقان:٣١)، وهو الذي جعل فرعون وهامان وجنودهما ﴿أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ﴾ (القصص:٤١)، وهو الذي جعل إبراهيم وإسحاق ويعقوب أئمة يهدون بأمره، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا...﴾ (الأنبياء:٧٣)، وهذا أمر زائد على مجرد المشيئة.

الأفعال الاضطرارية والأفعال الاختيارية

العبد له نوعان من الأفعال يدركهما كل عاقل بما يُحِس من نفسه، وقد دلت عليهما الأدلة الشرعية كذلك:

النوع الأول ـ الأفعال الاضطرارية:

وهي في حقيقتها أفعال مجازية، لأن الإنسان فيها مُنفعلٌ وليس فاعلاً على الحقيقة.

كما نقول: مات الرجل، أو ولدت المرأة، أو دق القلب، والفاعل من الناحية اللغوية للفعل «مات» هو «الرجل»، لكنك لو تأملت في حقيقته لوجدته من جنس قولك: سقطت الورقة، أو نما النبات، وهو ليس له إرادة في حصول الفعل، بل هذا الفعل أثر لفعل الله به فهو سبحانه الذي أماته وهو الذي أحياه وهو الذي أنبت النبات ونحو ذلك.

النوع الثاني ـ الأفعال الاختيارية:

وهي التي يكون للعبد فيها قدرة وإرادة مثل قولك: ضرب الرجل أخاه، أو صلَّى المصلي، وسرق السارق، وآمن

المؤمن، وكفر الكافر، هذه الأفعال تقع بطريقة مختلفة تمامًا عن الأفعال الاضطرارية، ولا يشك في ذلك عاقل.

فكل عاقل يفرق بين من يسقط من أعلى منزل ومن ينزل على الدَرَج، كل عاقل يجزم بالفرق بين الفعلين.

وكل عاقل - يُقرُّ بوجود الله - يجزم أن الأفعال الاضطرارية واقعة تحت مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، لأنه يعلم يقينًا أنه ما من فعل إلا وله فاعل، فإذا كان هو يعلم من نفسه أنه لم يفعل هذا الفعلَ، ولا غيرُهُ من الخلق، فلم يبقَ إلا أن يكون الله - عزَّ وجلَّ - هو الذي فعله ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (الطور: ٣٥)، حتى الكفارُ يقرون بقدرة الله على ذوات العباد وأفعالهم الاضطرارية، ولكن النزاع في الأفعال الاختيارية.

فأهل السنة يؤمنون بأن هذه الأفعال أيضًا لا تكون إلا بإرادة الله - عزَّ وجلَّ - وقدرته، لأن هذا هو مقتضى

الركن السادس من أركان الإيمان ـ وهو الإيمان بالقدر خيره وشره ـ [1].

وقد دلت أدلة الشرع على ذلك، وهذا هو مقتضى العقل والفطرة كذلك. فإن الإنسان حين يُثـبتُ لنفسه إرادةً وقدرة بها تقع أفعاله الاختيارية لا ينفي أن تكون هذه الإرادة وهذه القدرة مـخلوقةً، بمعنى أنها لم تكن موجـودة ثم وجدت، لأنه هو نفسه لم يكن موجودًا ثم أوجده الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

تأملْ وتفكرْ في بداية خلـق الإنسان حين كـان جنينًا في بطن أمـه ليست له أية إرادة، ثم خلق الله ـ عـزَّ وجلَّ ـ له نوعين من العضلات:

* **عضلات لا إرادية:** مثل عضلة القلب، وعضلات الأمعاء، والشرايين، ونحوها، وهذه مـن يوم أن بدأت في الحركة إلى أن يموت الإنسان تظل تتحرك بدون إرادة الإنسان.

---

(١) رواه مسلم (٨)، وأبو داود (٤٥٣٠)، والترمذي (٢٦١٠)، والنسائي (٤٩٩٠)، وابن ماجه (٦٣)، وأحمد (٢٩٢٦).

* **وعضلات إرادية:** مثل عضلات اليدين والرجلين، ونحوهما، وهذه تبدأ في الحركة والجنين مازال في بطن أمه، فهي رغم أنها إرادية إلا أن الجنين بالقطع لا يشعر بها لأن إرادته مازالت ضعيفة صغيرة تنمو بنموه، ثم يولد الإنسان ومعه إرادة ضعيفة حيث يجد نفسه مدفوعًا إلى فعل أشياء معينة، فهو مثلاً يبكي إذا كان جائعًا، فمن الذي غرس فيه إرادة إشباع الجوع؟ ويبدأ يلتقم الثدي ليَرضع، وهذه حركات إرادية ولكن إرادته فيها ضعيفة، لكنها أقوى قليلاً من إرادته حين كان في بطن أمه يتحرك.

ثم ينمو وتنمو معه إرادات أخرى، فهو يحب بعض الأطعمة، ويرفض البعض الآخر، ويرتاح لبعض الأشخاص مثل أمه وأبيه وأهله المقربين، ويصرخ ويبكي إذا أحس بالوحشة بين الغرباء، ثم ينمو وتنمو معه إرادات أخرى، فتجده يحب التملك ويرفض أن يشاركه أحد في مقتنياته الخاصة. هل الطفل هو الذي اختار هذه الرغبة وهذه الإرادة أم أنه وجدها قد خلقت فيه؟

ثم ينمو ويبلغ الحُلُمَ ويجد في نفسه رغبةً في الجنس الآخر.

وتنشأ عنده رغبات أخرى مثل حب الظهور والتنافس على الرياسة أو الرغبة في التقليد والمحاكاة، وهي رغبات ـ رغم أن الإنسان مجبول عليها ـ إلا أنها قابلة للتهذيب، ولذلك أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وشرع الشرائع لكي يسيطر الإنسان على هذه الرغبات والشهوات ويوجهها لما ينفعه في دنياه وأخراه.

ومن أعظم الرغبات وجودًا في نفس الإنسان ـ وإن كان كثير من الناس يتغافلون عنها ـ الرغبة في التعبد والخضوع للإله الحق ـ سبحانه وتعالى ـ.

فعلى الإنسان أن يوجه هذه الرغبات الوجهة الصحيحة التي خلقها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من أجلها، فمثلاً: الرغبة في التقليد والمحاكاة يوجهها الإنسان إلى تقليد الأنبياء والعلماء والصالحين، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ

﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١)، وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ (الممتحنة: ٤).

فإبراهيم والذين معه لم يُقلدوا قومهم وأهليهم في الباطل بل تبرؤوا منهم.

فالمؤمن يوطن نفسه: إن أحسن الناس أحسن معهم وإن أساؤوا تجنب إساءتهم. أما إن بَعُدَ عن الشرع ولم يهذب رغباته فإنه ينساق وراء الرغبة في التقليد فيقلد قومه في الباطل ويكفر بالله - عزَّ وجلَّ - بمجرد أنه وجد آباءه على هذه الملة، قال تعالى: ﴿فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ...﴾ (هود: ١٠٩).

فالتقليد الأعمى هو أكبر سبب من أسباب الكفر كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَ

لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (الزخرف: ٢٣-٢٤).

فالداعي إلى الكفر لا يدفعه إلى ذلك إلا مجرد موافقة من حوله، فهو لا يريد قطع أواصر المودة بينه وبينهم، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ (العنكبوت: ٢٥).

الغرض المقصود أن للإنسان أفعالاً اختيارية منبعها من الرغبات التي خلقها الله - عزَّ وجلَّ - فيه.

فأي عاقل لابد أن يقر بأن إرادة الإنسان مخلوقة، والله - عزَّ وجلَّ - هو الذي خلقها، لأنه إذا نفى ذلك مع إثباته لقدرة الله على الذوات والأفعال الاضطرارية يقع في التناقض ولابد.

وتفصيل ذلك: أن من يُقرُّ بعلم الله السابق فهو يقر بأن الله - عزَّ وجلَّ - كان يعلم بكفر الكافرين وفسق الفاسقين وأنهم سيصدُّون عن سبيله وسيؤذون أولياءه قبل أن

يخلقهم، وهو سبحانه كان قادرًا - ولم يزل - على ألا يخلقهم أو أن يمنع عنهم ما تستمر به حياتهم. إذًا فلو لم يُرِدْ أن يُعصَى لَمَا خلَق العصاة أصلاً. فمادام قد خلقهم فهو يريد ذلك سبحانه. وهذه هي الإرادة الكونية.

فكما أن ذواتهم وأفعالهم الاضطرارية داخلة تحت مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة فلابد من الإقرار بأن الأفعال الاختيارية كذلك.

والقرآن يدل على ذلك، فهو يثبت أن للإنسان قدرة ومشيئة، وينسب الأفعال الاختيارية إلى فاعليها من البشر، ولكن يثبت أن كل ذلك بمشيئة الله - عزَّ وجلَّ - وتحت قدرته الشاملة، فالله - عزَّ وجلَّ - أخبر عن أهل الجنة وأهل النار أنهم دخلوا الجنة أو النار بأعمالهم التي عملوها بإرادتهم، قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿ **كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ (المرسلات: ٤٣). وقال: ﴿ **وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ (الزخرف: ٧٢)، وقال عن أهل النار: ﴿ **فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا**

عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة: ١٤)، وقال: ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٥٥)، وقد مدح الله - عزَّ وجلَّ - أهل الجنة فقال: ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (العنكبوت: ٥٨)، وذم أهل النار فقال: ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (المائدة: ٧٩).

فالله - عزَّ وجلَّ - أثبت للعباد مشيئة بها تقع أفعالهم، قال تعالى: ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ (فصلت: ٤٠)، وأثبت أن لهم قدرة، فقال: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ﴾ (المائدة: ٣٤).

وأثبت لهم استطاعة، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ (آل عمران: ٩٧)، ولكن مع إثبات ذلك أثبت أنها داخلة تحت المشيئة الإلهية، فهي داخلة في عموم قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٨٤).

وهي داخلة أيضًا تحت عموم قوله سبحانه: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (الزمر: ٦٢)، وقوله: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢)، وقوله: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الصافات: ٩٦)،

بل إن أفعال العباد الاختيارية هي أول ما يدخل تحت عموم قوله سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر:٤٩)، لأن هذه الآية نزلت في المكذبين بالقدر[١]، وقال رسول الله ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى العَجْزُ وَالكَيْسُ»[٢].

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة ـ وورود العام على سبب يجعل ذلك السبب قطعي الدخول في العموم، فإذا كانت الآية قد نزلت في المكذبين بالقدر ـ وإنما النزاع في القدر يتعلق بأفعال العباد الاختيارية لا الذوات ولا الأفعال الاضطرارية ـ تَبَيَّنَ أن أول ما يدخل في عموم ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، هو أفعال العباد الاختيارية.

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٥)، وأحمد (٥٨٩٣).

* *والعجز قسمان:*

(أ) عجز لعدم وجود الآلة كاليد المشلولة، والأُذُن الصماء، فهذا لا يُذَم صاحبه ولا يكَلَّف المرء على أساسه، وهذا العجز بقدر الله.

(ب) عجز بمعنى ضعف الإرادة والتكاسل عن الطاعة بحيث لا يكاد يجد في قلبه رغبةً في الطاعة، فهذا عجز مذموم؛ لأنه ما صار العبد إلى هذا العجز إلا بإدمانه للمعصية وتركه للطاعة فالمُدْمِنُ آثِمٌ من كونه لا يستطيع ترك الإدمان لكونه المتسبب في عجز نفسه وهذا العجز أيضًا بقدر الله.

ـ وأما الكَيْسُ في الحديث فهو حُسْنُ العقل واستغلالُه في مرضاة الله.

وقد أخبر سبحانه أن أفعال العباد الاختيارية لا تكون إلا بإرادته سبحانه قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (البقرة: ٢٥٣).

فالحرب والقتال - وهما من الأفعال الاختيارية - لا يكونان إلا بإرادة الله - عزَّ وجلَّ - وجودًا وعدمًا، فلو أراد منعها لمنعها وإن توفرت أسبابها، كما قال سبحانه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الفتح: ٢٤).

وكذلك الهُدَى والضلال والطاعات والمعاصي لا تكون إلا بإرادة الله سبحانه، قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلاَّ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ»، وكان رسول الله ﷺ يقول: «يَا مُثَبِّتَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ»[1].

(١) سبق تخريجه (ص٢٢).

ولذلك اعترف الأنبياء والصالحون أن طاعاتهم لا تكون إلا بمشيئة الله سبحانه.

* قال إسماعيل عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات:١٠٢). وقال موسى عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (الكهف:٦٩). وقال العبد الصالح صِهْرُ موسى عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (القصص:٢٧).

وكذلك اعترفوا أن تركهم للشرك وثباتهم على الإيمان، لا يكون إلا بمشيئة الله سبحانه.

قال شعيب عليه السلام: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (الأعراف:٨٩).

وهو معنى قول إمام الحنفاء إبراهيم الخليل على أحد القولين في تفسير قوله: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ

رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ٨٠)، فعلى هذا القول: الاستثناء هنا متصل، ويكون المعنى: ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئًا من تَغَيُّرِ القلب فيحصُل فيه خوف هؤلاء بالباطل.

والقول الثاني: أن الاستثناء منقطع ويكون المعنى ولا أخاف ما تشركون به لكن إن شاء الله أن يصيبني بضرر فهو الذي يصيبني به لا أصنامكم وما تشركون.

شبهة والرد عليها:

إذا كان الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو خالق أفعال العباد وهو الذي جعل المهتديَ مهتديًا، ولو شاء لأضله، وهو الذي جعل الضال ضالاً ولو شاء لهداه، فلماذا كلف العباد وأمرهم ونهاهم، وهو قد خلق الهداية أو الضلالة في قلوبهم رغمًا عنهم؟

الجواب:

أن هذا من الخلط بين الحق والباطل، فكون الله هو الذي يهدي ويُضل، وهو الذي يخلق ذلك في قلوب العباد

- هذا حق لاشك فيه - أما أنه يخلق ذلك فيهم رغمًا عنهم فهذا باطل، لأنه خلق ذلك فيهم بإرادتهم.

فهو - سبحانه وتعالى - قدرته شاملة ومشيئته نافذة، إلا أنه أمر العباد بطاعته، ونهاهم عن معصيته، وأنزل عليهم كتبًا، وأرسل إليهم رسلاً، ليبينوا لهم الصراط المستقيم، فمن آمن برسله واتبع شرعه أحبه وأكرمه وجزاه الجنة، ومن كفر برسله ورد شرعه أبغضه وعاقبه بالنار.

ولكي يتضح الجواب عن هذه الشبهة علينا أن نفرق بين نوعين من أوامر الله - عزَّ وجلَّ -، فهناك الأمر الكوني: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢)، فهذا لا يمكن أن يُرَدَّ، بل إن كل خير أو شر في الكون لا يحدث إلا بأمر كوني من الله - عزَّ وجلَّ - وهذا معنى أننا نؤمن بالقدر خيره وشره، وليس شرطًا أن يكون كل ما يأمر الله - عزَّ وجلَّ - به (كونًا) أن يكون محبوبًا له، بل قد يكره الشيءَ ويأمر بحدوثه لحِكَمٍ يعلمُها - سبحانه وتعالى -.

وهناك نوع آخر من الأوامر، وهو الأمر الشرعي؛ وهو يشمل كل ما يحبه الله - عزَّ وجلَّ - من الطاعات والعبادات.

وليس شرطًا في كل ما يأمر الله - عزَّ وجلَّ - به أمرًا شرعيًا أن يحدث في الواقع، بل قد يأمر بالأمر الشرعي ولا يمتثله إلا القليلُ النادرُ من البشر.

وهذه الأوامر الشرعية هي التي يكون عليها الحساب والجزاء، ولكن الله - عزَّ وجلَّ - لرحمته وعدله - جعل مناط التكليف بالأوامر الشرعية هو العقل والإرادة والقدرة، فإذا لم يعلم الإنسان بالأمر الشرعي، أو فَقَدَ أحدَ هذه الثلاثة: العقل بأن كان مجنونًا، أو الإرادة بأن كان مكرهًا، أو القدرة بأن كان عاجزًا، فإنه لا يعذَّب، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء: ١٥)، وقول الرسول ﷺ: «إِنَّ اللهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»[١]، وقوله ﷺ: «رُفِعَ القَلَمُ عَنْ ثَلاَثٍ؛ عَنْ

---

(١) رواه ابن ماجه (١٩٨٤)، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وصححه العلامة أحمد شاكر والألباني.

المَجْنُونِ المَغْلُوبِ عَلَى عَقْلِهِ حَتَّى يُفِيقَ، وَعَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ»[١] .

بل من رحمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن الإرادة إذا كانت ضعيفة رفع التكليف، كما في الصبي، فإن الصبي له إرادة ـ بلاشك ـ ولكن لضعفها رفع عنه التكليف حتى تكتمل كما قال رسول الله ﷺ ، فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يظلم أحدًا، لأنه لا يحاسب إلا من اكتملت إرادته، فمن فقد إرادته ـ بإكراه أو خطأ أو نحوه ـ، أو ضعفت إرادته ـ بكونه صبيًا ـ لا يحاسب، وبهذا تتضح صفة العدل لله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا كما يقول القدرية النفاة الذين أرادوا أن ينزهوا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن الظلم، فنفوا إرادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأفعال العباد وخلقه لها، فنسبوا لله العجز ـ والعياذ بالله ـ.

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٩٩)، والترمذي (١٤٢٣)، والنسائي (٣٤٣٢)، وابن حبان (٢٠٤١) بنحوه، وصححه الألباني، وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات رجال مسلم.

وأهل السنة - والحمد لله - وسط بين القدرية النفاة والجبرية الغلاة، فهم يؤمنون بالقدر ويلتزمون بالشرع، أما الجبرية فيردون الشرع ويحتجون بالقدر، كما فعل إمامهم إبليس - عليه لعنة الله - فإنه لما أذنب وأبى أن يسجد كما أمره الله؛ ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف:١٦)، فهم يقولون: «مادام الله أراد إضلالنا فليس لنا إرادة في فعل الضلال»، وهذا كذب، فإن أحدهم حين يفعل الذنب لا يجد من يُكرِهُهُ عليه، بل يفعله بإرادته، فهم يريدون أن ينفوا الشرع حتى تصير الطاعة والمعصية سواء لا فرق بينهما، ففاعل الطاعة وفاعل المعصية كلاهما موافق لإرادة الله بزعمهم، وقد أوقعهم في هذا الضلال المبين عدم تفريقهم بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية.

مسألة:

إذا كان كل شيء في الكون لا يكون إلا بإرادة الله - عزَّ وجلَّ -، فكيف نفهم مع ذلك وجود أفعال اختيارية للعبد؟ وكيف نفهم مسؤوليته عنها رغم ذلك؟

الجـواب:

يجب على كل مؤمن أن يؤمن بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة لكل شيء حتى الأفعال الاختيارية، ولا تعارض بين أن يكون للعبد إرادة وللرب إرادة، لأن إرادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هي القاهرة، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام:١٨).

فهو سبحانه بإرادته القاهرة أراد أن يكون للعباد أفعال اختيارية، ولو شاء لجعل كل أفعالهم اضطرارية، ولجعلهم مكرهين على أعمالهم، كما أنهم مكرهون على أصل وجودهم، ولكنه أراد أن يكون للإنسان إرادة على بعض أعماله، وهذه الإرادة تابعة لإرادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، كما قال: ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (التكوير:٢٨-٢٩).

فأفعال العباد تكون بإرادتهم التي خلقها الله لهم، فلا مانع أبدًا أن يخلق الله شيئًا ثم يجعله سببًا في وجود مخلوق آخر، كما يخلق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الولد من أب

وأم، فهل كَوْنُ الأبِ والأمِ مخلوقَيْن يمنع من كونهما سببًا في حدوث الولد؟

وهل كونُ الولَدِ مخلوقًا يَنفي مسؤولية أبويْه عنه؟ أو يمنع أن يُنسَب إليهما؟

في ضوء هذا المثال تستطيع أن تفهم العلاقة بين إرادة العبد وإرادة الرب، ومسؤولية العبد عن أفعاله في نفس الوقت.

فالفعل كالولد يتكون بسبب قدرة الإنسان وإرادته، فهل كون قدرة الإنسان وإرادته مخلوقتين يمنع كونهما سببًا في حدوث الفعل؟

وهل كون الفعل مخلوقًا يمنع مسؤولية الإنسان عنه؟ أو يمنع نسبته إليه؟

والكل واقع بمشيئة الله وخلقه لهم، فهو الذي شاء وجود الأب والأم ووجود الولد منهما، وهو الذي شاء وجود إرادة الإنسان وقدرته ووجود الفعل الاختياري بهما.

شبهة والرد عليها:

اعتاد البعض أن يذكر مثال المدرس ليستدل به على عدم ظلم العباد بكتابة أفعالهم فيقولون في هذا المثال: «مثل كتابة الله لمقادير العباد كمثل المدرس الذي أجرى امتحانًا للتلاميذ، وقبل تقييمه وتصويبه رَصَدَ لهم درجاتهم لعلمه بمستوياتهم فلما صوّب الامتحان وقيَّمَهُ وجد الدرجات كما توقّع.

وهذا مثال خاطئ جدًا حتى ولو قالوا: إنَّ علمَ المدرس ظني وعلم الله قطعي لابد من وقوعه، فإن المثال فيه خطأ من وجهين:

(أ) المدرس يريد لجميع الطلبة التفوق والنجاح، ولكن الله يريد لبعض العباد الكفر والضلال، يريده إرادة كونية لا إرادة شرعية؛ فهو سبحانه لا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفاسقين والظالمين والمفسدين.

(ب) المدرس لم يتدخل في كتابة الطلبة الامتحان ولا قدرة له على ذلك، ولكن الله قادر على أعمال العباد.



أثر الإيمان بالمشيئة والخلق في السلوك

كثر بيان هاتين المرتبتين من مراتب الإيمان بالقدر في القرآن، مع بيان آثار الإيمان بهما في السلوك، وغالبًا ما تقترن هاتان المرتبتان في الأثر السلوكي والإيماني في قلوب العباد.

فلنتدبر بعض آيات القرآن التي تعرضهما، ففي كل آية منها كنوز، وكنوز يحتاجها المسلم.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣) أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ (الأنعام: ١١١-١١٤).

فقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾، أي: أن هؤلاء الذين أراد الله إضلالهم لو توفّرت لهم كل أسباب الهداية لما اهتدوا، فلو نزلت إليهم الملائكة وأخبرتهم بصدق الرسل، وكذلك لو بعث الموتى، ولو جاءتهم كل الأمم السابقة فأخبرتهم بذلك لما اهتدوا، قال ابن كثير: ﴿ مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أي: أن الهداية إليه لا إليهم، بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الفعّال لما يريد، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، لعلمه وحكمته وسلطانه وقهره وغلبته، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ (يونس:٩٦-٩٧)» اهـ.

حين يعلم المؤمن أن الهداية والضلال بيد الله يهون عليه إعراض الناس عن دعوته، كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لنبيه ﷺ: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ

النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ (يونس:٩٩-١٠٠)، وهذا فيه من التعزية والتسلية لرسول الله ﷺ ما لا يخفى، فهو ﷺ كاد أن يُهلك نفسه أسفًا على هؤلاء المعرضين، مع أنه بذل غاية جهده في النصح لهم وتبليغ الدعوة إليهم، فعليه أن لا ييأس، لأن الله قادر على أن يهديهم جميعًا في لحظة واحدة، فلو شاء الله لجمعهم على الهدى، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأنعام:٣٥).

أي: لا تستعظم إعراضهم ولا تكونن من الجاهلين الذين يظنون أن لهؤلاء الكافرين الإرادة النافذة في الكون وأن إرادتهم فوق إرادة الله ـ والعياذ بالله ـ.

وهكذا كل داعية ـ إذا وزن دعوته بميزان الكتاب والسنة فلم يجد فيها غلظة أو فظاظة أو خللاً في الظاهر أو الباطن ـ

فإنه لا يحزن لإعراض الناس عن دعوته لأن الهداية بيد الله لا بيده هو.

فلا تحزن لإعراض الناس عن دعوتك، فلست بأفضل من رسول الله ﷺ الذي كان يدعو إلى الله - عزَّ وجلَّ - بأفضل أسلوب، ويتلو على الناس ما تتأثر به الصخور الصمَّاء، يتلو عليهم كتاب الله - عزَّ وجلَّ -، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر:٢١)، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ (الرعد:٣١)، أي: لكان هذا القرآن ومع ذلك فقد كفر به وعاداه أقرب الناس له، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (القصص:٥٦)، وهكذا فإن القرآن نفسه يرفع درجات المؤمنين، ويزيد الظالمين خسارًا، لأن الله قد أعمى بصيرتهم عنه، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (الكهف:٥٧).

ولست بأفضل من نوح عليه السلام الذي ظل في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (العنكبوت:١٤)، يدعوهم ليلاً ونهارًا وسرًا وجهارًا، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ (نوح:٥-٩)، فما كان منهم بعد كل هذا إلا أن: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (هود:٣٢-٣٤)، فلا ينفع النصح مع من أراد الله أن يُغويَه ولو كانت النصيحة من الأب الشفيق لفلذة كبده، كما وجه نوح عليه السلام النصح لابنه، ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ

كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾ (هود: ٤٢)، فنفذت فيه إرادة الله فكان من المغرقين، بل لقد عاتبه ربه حين سأله عن ابنه فقال: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (هود: ٤٥-٤٧).

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (الأنعام: ١١٢)، فالله - عزَّ وجلَّ - هو الذي جعل هؤلاء أعداءً لأنبيائه بمشيئته وقدرته، لم يخرجوا عن ملكه وقدرته.

إذا استحضر المؤمن هذا المعنى صغر في عينه كل أعدائه وأعداء دينه، لأن نواصيَهم بيد الله - عزَّ وجلَّ -، ويستحضر قول هود عليه السلام متحديًا قومه: ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ

وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ (هود: ٥٤-٥٦).

فالمؤمن في صراعه مع الباطل لابد أن يستحضر قوة الله - عزَّ وجلَّ - وقهره لأعدائه، حتى لا تذل نفسه، ولا تضعف عزيمته فيداهنهم، أو يهادنهم أو يهوله اجتماعهم وتزيينهم الباطل، والصَّد عن سبيل الله وتعاونهم على ذلك، فإن ذلك كله بقدر الله - عزَّ وجلَّ - وقضائه، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (الفرقان: ٣١)، هاديًا رغم إضلالهم، ونصيرًا رغم محاولاتهم وأْدَ الدعوة وهزيمة الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ (الأنعام: ١١٢)، تأمل في قوله: ﴿رَبُّكَ﴾، فهو يدل على الخصوصية بالمؤمن وفيه أن الله - عزَّ وجلَّ - يُوليه العناية والرعاية، لا يبتليه بأعدائه ليهلكه بل ليرفعه.

وهو سبحانه مكَّن لشياطين الإنس والجن، لحِكَم عظيمة نعلم بعضها ونجهل كثيرًا منها:

* أن يعرف العباد حكمة الله الباهرة حيث خلق الشر وما تكرهه النفوس لحِكم باهرات؛ فها هو المرض يكفِّر سيئات المؤمن، وها هي المعصية لو تاب المؤمن منها لبُدِّلت سيئاته حسنات، بل هي كذلك تنفع المؤمن بكسر عُجْب نفسه، فكم من طائعٍ مُعجَب متكبر، وكم من عاصٍ تائب متواضع، ثم حتى لو مات الكافر على كفره فعذابه يوم القيامة وموته على الكفر يوجب مزيد الشكر من المؤمنين إذ أحياهم الله وأماتهم على الإيمان ويوجب لهم في الدنيا الخوف من سوء الخاتمة فتزداد طاعتهم وتعلو درجاتهم في الجنة، فسبحان الله الحكيم الخبير.

* حتى توجد عبادة من يعبد مع وجود داعي الشهوة في قلوبهم والشيطان يأزهم إلى المعصية ومع ذلك يطيعون الله ولا يعصونه، فهذا أكبر دليل على أنهم قدموا محبة الله على محبة الشهوات.

* ومنها: أن تظهر آثار صفات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حين يتوب العاصي والمشرك والكافر فيتوب الله عليهم فتظهر صفة التوبة والمغفرة والعفو، والله يحب التوابين.

* ومنها: أن تظهر للعباد رحمة الله كيف خلق أناسًا وأنعم عليهم بكل النعم ثم يعصونه ثم يتوب عليهم.

* ومنها: أن تظهر مقتضى صفات الله من عذابه للعصاة وانتقامه من المجرمين.

* ومنها: أن تظهر آثار قدرة الله حيث خلق الملائكة التي لا تعصي أبدًا، وخلق الإنس والجن الذين يطيعون ويعصون، وخلْقُ المتضادات أدل دليل على القدرة.

* ومنها: أن يظهر صدق المؤمنين حيث يعبدون الله ويؤمنون به في وسط مليئ بالمعاصي والكفر.

* ومنها: أن يوجد الولاء والبراء فيعادي الرجل أباه وابنه والناس كلهم من أجل الله.

* ومنها: رفعة المؤمنين الذين يجاهدونهم ويصبرون على أذاهم.

ولذلك نقول: من أجلكم أيها المؤمنون أَوْجَدَ الله الكفرة وجعلهم يمكرون ويكيدون، ليظهر منكم ما يحب، وليستخرج من قلوبكم وألسنتكم وأعمالكم أنواعًا من العبودية يرفعكم بها درجات ودرجات، فلا تضيعوا الفرصة وأَرُوا الله ـ عزَّ وجلَّ من أنفسكم خيرًا، ولا يَهُولَنَّكُم كثرةُ الأعداء؛ فإنهم لا يملكون من أمر أنفسهم شيئًا بل هم والله يلعبون ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنعام: ٩١). وقد قال سبحانه وتعالى بعد أن أمر المؤمنين بالجهاد في سبيله، وضرب رقاب الكافرين وشد وثاقهم: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (محمد: ٤)، لم يشأ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن ينتصر منهم بخارق من عنده، بل شاء أن يوجد ذلك الصراع بين الحق والباطل لحكمة عظيمة، وهي الابتلاء ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ

بعضكم ببعض﴾، حتى يُظهر الله ـ عــزَّ وجلَّ ـ نيات أوليائه وصدقهم في وقت الشدة، ويظهــر فضلهم على غيرهم ممن يعبدون الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في الرخاء فقط.

ثم يُظهــر الله ـ عــزَّ وجلَّ ـ عظـيم فـضله على عــباده المؤمنين، حـيث ينصرهم ويـؤيدهم ويشفي صـدورهم من عدوهم، ويجعل العاقبة لهم، كما حدث لجميع الأنبياء.

وهذا ما حـدث لرسول الله ﷺ يوم الخندق، حين اشتد البأس وبلغت القلوب الحناجر وابتُلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدًا **﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِــرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾** (الأحزاب: ١٠-١١)، لم يثبت من الثـلاثة الآلاف الذين كـانوا مع الرسـول ﷺ إلا ثلاثمـائة فقط، ولكـن لمّا علم الله منهم الصبـر والثبات أنزل عـليهم نصـره، وتغيـرت الموازين، ونصر أوليـاءه بجند من عنده، ليظهر فـضله على عبـاده، قال تعـالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**

اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٩).

وكذلك تغيرت الموازين لحظة وجود الرسول ﷺ في غار حراء: ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة: ٤٠).

ورسول الله ﷺ في الغار يوقن أن نواصيَ العباد بيد الله، وأن مشيئته نافذة في إرادتهم وأفعالهم، ولذلك لما قال له أبو بكر رضي الله عنه: «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا»، فقال: «مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا، لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا»[1].

فهو يؤمن أن مجرد نظر الإنسان تحت قدميه لا يكون إلا بقضاء الله وقدره ـ سبحانه وتعالى ـ، ولذلك توكَّلَ على الله سبحانه في صرف أبصارهم عنه وعن صاحبه.

(١) البخاري (٣٤٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

وقوله تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ (الأنعام: ١١٢)، أي لا تكترث بمكرهم استهانة بهم، وتحقيرًا لشأنهم، وهذا الأمر في هذه الآية المكية في حال ضعف المسلمين وتسلط أعدائهم فيه البشرى لكل من توكل على الله في نصرة الدين ورد كيد أعدائه.

وهذه الاستهانة بمكر الكافرين لا تحصل إلا في قلب المؤمن بالقدر وأن الله هو الذي جعلهم كذلك ومكنهم منه، كما استشعر موسى عليه السلام أن كل ما عند فرعون وملئه من زينة الدنيا ليس بقوتهم هم وإنما هو بقدر الله، ولذلك لجأ إلى الله ودعاه قائلاً: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ (يونس: ٨٨)، وكما استشعرها هود عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (هود: ٥٤-٥٦).

وقوله تعالى: ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ (الأنعام:١١٣)، بيَّن الله - عزَّ وجلَّ - الحكمة من إيجاده هؤلاء الصادِّين عن سبيله، فإن لكل فعل من أفعال الله - عزَّ وجلَّ - حكمة، فلا يحدث شيء في الكون هكذا خَبْطَ عَشْواءَ، حتى الشر الذي يوجد في الكون إنما هو شر بالنسبة إلى فاعله من المخلوقين، أما بالنسبة لإرادة الله - عزَّ وجلَّ - فإنه يترتب عليه الخير، كما قال النبي ﷺ: «وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1].

ونحن إذ نقول أمام بعض أحداث الحياة حين لا نفهم الحكمة من حصولها: ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (الأنبياء:٢٣)، ليس معنى ذلك أنها خارجة عن الحكمة، كلا، بل نوقن أن كل ما يحدث في الكون إنما هو لحكمة، ولكن قد يعلمها بعض الخلق وتخفى على الآخرين، وعدم الوصول إليها ومعرفتها لا ينفي وجودها.

---

(١) عن علي أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وَجَّهْتُ وَجْهِي...»، رواه مسلم (٧٧١).

وقد بين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الحكمة من إيجاده للصادِّين عن سبيله، وهي التفرقة بين أهل الإيمان وغيرهم، فإن الذين لا يؤمنون بالآخرة ستنجذب قلوبهم لمكر هؤلاء، ويحركهم ذلك لفعل المنكرات.

كما أخبر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في الآية الأخرى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ (الأنفال: ٣٦-٣٧).

فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ خلق بعض عباده في ظلمة، وجعل في قلوبهم الخبث والفساد، كما خلق بعضهم في نور، وجعل في قلوبهم الإيمان والصلاح، ثم خلط بين الفريقين في الدنيا لتظهر من المؤمنين الطائعين أنواع من العبودية التي يحبها سبحانه وتعالى ـ، وقدَّر ما يتميز به الفريقان من وجود الفتن التي تُعرض على القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا، فتنكرها قلوب المؤمنين لتزداد إيمانًا، أما القلوب النجسة فإنها تتقبلها وتتشبع بها، وبذلك تعود القلوب

قلبين وينقسم الناس فسطاطين: فسطاط إيمان لا نفاق فيه وفسطاط كفر لا إيمان فيه، وذلك في آخر الزمان.

عن حُذَيفَةَ قالَ: كُنَّا عنْدَ عُمَرَ فَقَالَ: أَيُّكُم سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يذْكُرُ الفتَنَ؟ فقَالَ قومٌ: نحنُ سَمِعْنَاهُ، فقالَ: لعلَّكُم تَعنُونَ فِتْنَةَ الرُّجُلِ في أَهلِه وجاره؟ قالُوا: أَجَلْ، قالَ: تلكَ تُكفِّرُها الصلاةُ والصيامُ والصدَقةُ، ولكنْ أيُّكُم سَمِعَ النبيَّ ﷺ يذْكُرُ الفِتَنَ التي تَمُوجُ مَوْجَ البحرِ؟ قال حذيفَةُ: فَأَسكَتَ القومُ، فقُلتُ: أنا، قالَ: أنتَ، لله أبُوكَ! قال حذيفَةُ: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: **«تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلوبِ كالحَصِيرِ عُوداً عُوداً، فَأَيُّ قَلبٍ أُشرِبَها نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سوداءُ، وأيُّ قلبٍ أنكَرَها نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بيضاءُ، حتَّى تَصِيرَ على قَلبينِ: على أبيضَ مثلِ الصَّفا فلا تَضُرُّه فِتْنَةٌ مادامَتِ السماواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسْوَدُ مُرْبَادًّا كالكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعرِفُ مَعْرُوفًا ولا يُنكِرُ مُنكَرًا، إلا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»**[1].

---

(١) رواه مسلم (١٤٤)، وأحمد بنحوه (٢٣٣٢٨).

- «أسْوَدُ مُرْبَادًّا»: شدة البياض في سواد. - «كالكُوزِ مُجَخِّيًا»: منكوسًا.

فصل

ومن الآيات التي بيَّن الله - عزَّ وجلَّ - فيها الإيمان بالمرتبتين: الثالثة والرابعة من مراتب الإيمان بالقدر ما ذكره الله - عزَّ وجلَّ - في قضية الخلاف، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (هود:١١٨-١١٩).

أراد الله - عزَّ وجلَّ - إرادة كونية - أن يكون الناس مختلفين لما في ذلك من الحكم العظيمة، ولكن ليس معنى ذلك أن نستسلم للاختلاف، بل يجب علينا أن ندفع القدر بالقدر، فإن الله - عزَّ وجلَّ - قدَّر أن يرحم بعض عباده فيعصمهم من الخلاف، ولذلك علينا أن نسعى أن نكون منهم، بل علينا أن نسعى لنوافق الإرادة الشرعية التي خلقنا الله - عزَّ وجلَّ - لها - وهي الرحمة بالعصمة من الخلاف، قال تعالى: ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ -

فإذا أخذ الإنسان بأسباب إزالة الخلاف بالاجتماع على الحق والابتعاد عن الباطل - فلم يحصل بعد ذلك ما كان يطمح إليه من الائتلاف - إلا بين طائفة يسيرة ممن يعظمون أمر الله وسنة نبيه ﷺ - فلا يحزنْ، لأن ذلك بمشيئة الله وإرادته الكونية.

إذا استقر هذا المعنى في قلوب الدعاة إلى الله - عزَّ وجلَّ - فإنهم لن يفرطوا في الحق الذي معهم، أو يداهنوا المبطلين بزعم المحاولة لتضييق هوة الخلاف مع الواقع.

فالمؤمن لابد أن يجمع بين الالتزام بالشرع والتسليم للقدر، وبذلك يحقق الوسطية الواجبة بين من يترك المحاولة للتأليف بين القلوب والتنسيق بين الطاقات، فيعطل الأمر الشرعي بالائتلاف والتعاون احتجاجًا بالقدر، وبين من يدعوه التسخطُ على القدر السابق بحصول الخلافِ إلى المداهنة في الدين والوهْن في محاربة المنكرات. فاللهم اجمع على الحق كلمتنا، وألِّف على طاعتك قلوبنا وأصلح ذات بيننا على الوجه الذي يرضيك عنا.

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (هود:١١٩)، قال ابن كثير - رحمه الله -: يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره - لعلمه التام وحكمته النافذة - أن ممن خلق من يستحق الجنة ومنهم من يستحق النار، وأنه لابد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة والحكمة التامة.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اخْتَصَمَتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ إِلَى رَبِّهِمَا، فَقَالَتِ الجَنَّةُ: يَا رَبِّ مَالِي لاَ يَدْخُلُنِي إِلاَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟، وَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ - وفي رواية: «أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ - وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، قَالَ: فَأَمَّا الجَنَّةُ فَلاَ يَزَالُ فِيهَا فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا يَسْكُنُ فَضْلَ الجَنَّةِ، وَأَمَّا النَّارُ فَلاَتَزَالُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حتى يَضَعَ عَلَيهَا رَبُّ العِزَّةِ قَدَمَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ وعِزَّتِكَ»[1].

---

(١) رواه البخاري (٧٠١١)، ومسلم (٢٨٤٦).

فقد تكفّل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لمخلوقين عظيمين من مخلوقاته بأن لا يذرهما معطلتين، فقال سبحانه للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا».

وليس معنى ذلك أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد ظلم عباده ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت:٤٦)، وذلك أن من يدخل النار قد استحق دخولها بعمله، والله عزَّ وجلَّ ـ قد خلق له قدرة وإرادة وعقلاً، وأرسل له الرسل، وأنزل عليه الكتب، فهو لم يدخلها إلا بالحق، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (السجدة:١٣).

وقال: ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس:٣٣)، وما أحسنَ كلمةَ الحسن ـ رحمه الله ـ: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ دَخَلُوا النَّارَ وَإِنَّ حَمْدَ اللهِ لَفِي قُلُوبِهِمْ»، أي يعلمون أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لم يظلمهم، بل هم يستحقون

هذا العذاب، ولذلك قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بعد ما ذكر مآل الكافرين والمؤمنين، قال: ﴿ **وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (الزمر: ٧٥)، فَأَبْهَمَ الفاعل في قوله: ﴿ **وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾، للدلالة على أنه غير مقتصر على المؤمنين فقط، بل إن الكافرين يُقِرُّون بها أيضًا وهم في نار جهنم، أما المؤمنون فإنهم يقولونها اعترافًا بفضل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ونعمته، كما يقول المؤمن في الجنة: ﴿ **وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ** ﴾ (الصافات: ٥٧)، فشهد أن الله هو الذي يُؤتي الهدى، هذا الشهود هو سِمَةُ المؤمنين في الدنيا والآخرة، ولذلك فهم في الدنيا يُكثرون من دعاء النبي ﷺ الذي كان يقول فيه: «**اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**»[1].

---

(١) عن زيد بن أرقم قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول: كان يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ** =

وفي الآخرة يقولون: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ (الأعراف: ٤٣)،

وهنا . . قد يدخل الشيطان مُلقيًا الشبهات على أتباعه، فيقول أحدهم: كان يجب على الله أن يساوي بين عباده حتى لا يكون ظالمًا لهم.

و﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾ (الكهف: ٥)، فإن العبد ليس له أن يوجب على ربه شيئًا ولا أن يحاكم ـ بعقله القاصر المحدود ـ أحكم الحاكمين سبحانه وتعالى ـ، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحجرات: ١٦).

ثم أليس العقل السليم هو الذي يحكم بأن المساواة بين المختلفين ظلم، كما أن المخالفة بين المتساويين ظلم، وهل

= لاَ يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا»، رواه مسلم (٢٧٢٢)، والنسائي (٧٨٩٥) بنحوه.

مِن عاقلٍ يوجب أن يُلقَى بالبذر الطيب في الأرض السبخة كما يُلقى في الأرض الطيبة حتى لا تظلم الأرض السبخة؟!

قال الله تعالى: ﴿ **أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** ﴾ (القلم: ٣٥-٣٦)، وقال: ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ (ص: ٢٨)، فزرع ـ سبحانه ـ الكفر حيث ينبت الكفر، وزرع الإيمان حيث ينبت الإيمان، ولو زرع الزارع البذر الطيب في الأرض الخبيثة والبذر الخبيث في الأرض الطيبة لما نبت شيء ولكان سفهًا يخالف العلم، فالله هو العليم الخبير وقد وضع كل بذرة حيث تنبت وفي الأرض الصالحة لها.

وقد نعى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على المشركين حين اعترضوا على حكمته سبحانه، وقالوا: لو كان الإيمان خيرًا لكنا نحن أحق به، ولما سبقنا إليه هؤلاء الضعفاء الأذلاء، فجعل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هذا فتنة لهم فقال: ﴿ **وَكَذَلِكَ فَتَنَّا**

بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ (الأنعام: ٥٣).

فـالله ـ عزَّ وجـلَّ ـ هو أعلم بمواضع الفـضل ولا يولي نعمته إلا من يستـحقها، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

فليس للعبد أن يرفع نفسه إلى مـقام الربوبية فيوزع نعم الله وفق ما يحكم به هواه، وقـال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (الزخرف: ٣١-٣٢).

وقد اقتضت حكمة الله تعالى المفاضلة بين عباده ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ (الإسراء: ٢١).

فإن قيل: من الذي جعل قلب الكافر لا يقبل إلا الكفر، وقلب المؤمن لا يقبل إلا الإيمان؟ ومن الذي خلق الكفر في قلب الكافر وخلق الإيمان في قلب المؤمن؟

قلنا: هو الله، فإن قيل: لِمَ؟ قلنا: هذا هو سر الله في القدر الذي لا يعلمه غيره، ولعل الناس تعرف هذا الغيب وغيره يوم القيامة. ففي القدر عدة مسائل لا يعلم كيفيتها إلا الله، ولا يفهمها الخلق في الدنيا، فليحذر المؤمن من التفكير فيها، فهي سبب الشك، وقد قال الطحاوي: «فالحذر الحذر من التفكير في القدر فهو سُلّم الطغيان ودرجة الحرمان»، والعقل البشري لا يفهم كثيرًا من الأشياء، ولا يعرف كيفيتها، وهذا أمر مطّرد في الدين، وفائدة هذا أن العقل لو علم كيفية كل شيء لما كان هناك إيمان بالغيب، فالمؤمن حقًّا هو الذي يؤمن بالشيء مع عدم علمه بكيفيته، ومن رحمة الله أن جعل أشياء يعقلها العباد ويعلمون كيفيتها حتى يستدلوا بما علموا الحِكَمَ الباهرةَ فيه على وجودِ حِكَمٍ باهرةٍ في ما لا يعلمون كيفيَّتَه.

فصل

إن مما يعمق الإيمان بالقدر في القلب حتى يُثمِرَ أفضل الثمار في السلوكِ الإكثارَ من ترديد الذكر الذي قال عنه النبي ﷺ: «**خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ عَرَفَةَ وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ**»(١).

فإن العبد إذا تدبر هذا الذكر وجد فيه حقائق الإيمان: من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، وفي بعض الروايات نجد الإيمان باليوم الآخر، كما في الأحاديث التي فيها زيادة: «**يُحْيِي وَيُمِيتُ**»، والتي فيها زيادة: «**وَإِلَيْهِ المَصِيرُ**»، ونجد فيه أيضًا إثبات القدر والحكمة معًا، فقولك: «له الملك» يجعلك تستحضر أنه لا يكون في مُلك الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلا ما يريد، فهو سبحانه الذي خلق هذا الكون، وهو المدبر المتصرف فيه بما يريد ـ سبحانه وتعالى ـ.

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٨٥)، ومالك (٤٩٨، ٩٦٣)، وحسنه الألباني.

فكل ما يحدث في الكون من هداية أو ضلال، ومن خير أو شر لا يكون إلا بإذن الملك الحق لهذا الكون، فكما أن الإنسان خاضع في أصل وجوده لإرادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فكذلك هو خاضع في استمرار وجوده لإرادته سبحانه، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ⟨١٥⟩ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ⟨١٦⟩ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (فاطر: ١٥-١٧)، وقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ (النساء: ١٣٣)، وهو أيضًا خاضع لإرادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في أعماله التي يعملها بإرادته، وكل البشر في ذلك سواء، حتى النبي ﷺ قال الله تعالى له: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ (الشورى: ٢٤)، وقال: ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٤).

وبذلك يتأدب العبد مع إرادة ربه سبحانه، ويتوكل عليه سبحانه ويفوض كل الأمور إليه، لأنه هو المالك الحقيقي لها.

كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لسيد ولد آدم وأكرمهم عليه ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (الكهف: ٢٣-٢٤).

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ في ذكر أهل الجنة وأهل النار: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ (هود: ١٠٧).

فدخول الجنة والنجاة من النار بإذن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإذا استحضر العبد ذلك لجأ إلى من له الملك وحده، وقال كما قال النبي ﷺ: «لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَى مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ»[1]، وقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ

---

(١) عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا فُلاَنُ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَى مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ أَنْتَ مِتَّ فِي لَيْلَتِكَ مِتَّ عَلَى الفِطْرَةِ، وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصَبْتَ خَيْراً» البخاري (٧٥٠)، ومسلم (٢٧١٠).

عُقُوبَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»(١).

فتلجأ إلى الله - عزَّ وجلَّ - ليُنجيَك من المكروه الذي لو قُدِّرَ عليك لكان بأمر منه سبحانه.

والأمر راجع إلى مشيئته، قال - عزَّ وجلَّ -: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ (الإسراء: ٥٤)، وكذلك في قوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ (آل عمران: ١٢٩).

أما قولك: «وله الحَمْدُ»: فيجعلك تستحضر حكمة الله - عزَّ وجلَّ - في كل أفعاله سبحانه، فهو - مع كونه لا رادَّ لقضائه ولا مُعَقِّب لحُكْمِه - إلا أنه لا يقضي إلا بالعدل وبما

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦)، وأبو داود (٨٧٩)، والترمذي (٣٥٦٦)، والنسائي (١٦٩)، واللفظ له، فعن عائشة ﵂ قالت: «فَقَدْتُ النَّبِيَّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَجَعَلْتُ أَطْلُبُهُ بِيَدِي، فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى قَدَمَيْهِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ سَاجِدٌ يَقُولُ: ...» الحديث.

يستحق أن يُحمد عليه، فمثلاً قضية الرزق لا يرضى المؤمن بما قسم الله ـ عـزَّ وجلَّ ـ له منه لمجرد أنه مكتـوب قبل أن يُخلق، أو لأنه لا حيلة له في استجلاب ما لم يُقدره الله له فقط، بل لأنه يعلم أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له الحمد التام على ما قدره له، فـإن هذا القدْر الذي قسمه الله له هو مُـقتضَى الحكمة التامة، كما بيَّن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ذلك فقال: ﴿ **وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ** ﴾ (الشورى: ٢٧)، فيشـهد المؤمن الحكمة من البسط والقبض: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا** ﴾ (الإسراء: ٣٠)، وقال تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (الروم: ٣٧)، فيستريح قلبـه ويُحصِّل سببًا من أعظم أسباب السعادة في هذه الدنيا.

وذلك بشـهود الحكمـة في القبض والبـسط ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ** ﴾ (الإسراء: ٣٠).

وكذلك يشهد المؤمن حكمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في كل شيء، فبشهود الملك والحمد لله وحده تُحَقِّقُ (الجمع) ـ اجتماع القلب على الله بشهود كل شيء بمشيئته النافذة في الهداية والإضلال ـ لتَشْهَدَ فيه (الفرق) بين العباد مؤمنهم وكافرهم بالفضل والعدل، ﴿ مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الأنعام: ٣٩).

فالكفرة لم يضلوا إلا بمشيئة الله ولكن هذا مقتضى عدله، قال تعالى: ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (إبراهيم: ٢٧)، والمؤمنون لم يهتدوا إلا بمشيئة الله، وهذا فضل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عليهم الذي يعترفون به في قولهم: ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ (الأعراف: ٤٣).

فشهود العدل هو شهود الربوبية، وشهود الفضل هو تحقيق توحيد الألوهية مع شهود أسماء الله وصفاته في حكمته وعدله وفضله، وتشهد حكمته في كل ما قدر، وهذا مقتضى قولك: «له المُلْكُ وَلَهُ الحمْدُ».

من كل ما سبق يتضح أن أثر الإيمان بالقدر في السلوك ليس فقط عند حدوث المصائب ـ بالصبر عليها والرضا بها ـ، ولكن آثار الإيمان بالقدر في السلوك تظهر في كل لحظة من حياة المؤمن وعند كل فعل أو حدث يحدث في الكون يشهد فيه قدر الله السابق وتوفيقه سبحانه لمن أطاعه وخذلانه لمن عصاه، وحكمته سبحانه في كل ما قضاه وقدره، نسأل الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ أن يجعل عاقبتنا خير عاقبة، وأن يُجيرَنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

فصل

قال رسول الله ﷺ : «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنتَ أَبُونَا، خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الجَنَّةِ، قَالَ لَهُ آدَمُ: يَا مُوسَى اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلامِهِ وَخَطَّ لَكَ التوراةَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَن يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى ثلاثًا»(1).

(1) سبق تخريجه (ص15).

وفي رواية : «فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي، قال: بِأَرْبَعِينَ سَنَةً، قال: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ (طه: ١٢١)، قَالَ: نَعَم، قَالَ: كَيْفَ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟»، قال ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى . ثلاثا .»[1].

في هذا الحديث بيان متى يصح الاحتجاج بالقدر، وكيف يصح، وذلك أن الاحتجاج بالقدر يسوغ في المصائب كما احتج آدم به على مصيبة نزوله وذريته إلى الأرض، وكذلك يصح الاحتجاج بالقدر في المعائب والذنوب، ولكن بشرط أن يكون العبد قد تاب منها، وهذا هو الأظهر في الحديث، فإن موسى عليه السلام لام آدم على أكله من الشجرة الذي كان سببًا في حدوث المصيبة (وهي نزوله من الجنة)، لأن المصيبة قد أوقعها الله به بدون إرادة منه عليه السلام وسيدنا موسى يعلم ذلك قطعًا، فالأولى أن يكون

(١) سبق تخريجه (ص١٦).

موسى قد لامَ آدمَ على المعصية، ولذلك غلبه آدم في الحجة؛ لأن الذنب الذي تاب العبد منه بمنزلة المصيبة لأنه لا يستطيع أن يغير الماضي وليس في إمكانه إلا التوبة، وقد فعلها، فليس لأحدٍ أن يلومه عليها؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

أما أن يحتج العبد بالقدر على المعاصي التي لا يريد أن يتوب منها فهذا الاحتجاج باطل ومردود عليه؛ لأنه في هذه الحالة إبليسيّ الطريقة، فإبليس هو أول من احتج بالقدر؛ قال: ﴿ **فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ (الأعراف:١٦)، وكذلك المشركون احتجوا بالقدر، وقالوا: ﴿ **لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ** ﴾ (النحل:٣٥).

واحتجوا كذلك بالقدر لتبرير بُخْلهم: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ (يس:٤٧).

وأخبر - عَزَّ وجَلَّ - أنهم يحتجون بالقدر عند نزول العذاب؛ قال تعالى: ﴿ **وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن**

يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الزمر: ٥٤-٥٨).

* ذكر الله ـ عزَّ وجَلَّ ـ في هذه الآيات ثلاث حُجج:

الأولى ـ الندم، والندم توبة، ولكنها لم تنفعهم لأنهم تابوا بعد الموت، وقد انقضى زمن التوبة.

الثانية ـ الاحتجاج بالقدر: ﴿ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي ﴾، فهذه أيضًا لم تنفعهم لأنهم هم الذين فعلوا ما يستحقون العذاب عليه، ولذلك ذكرهم الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ بأعمالهم التي عملوها، قال: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (الزمر: ٥٩)، فهو قد فعل هذه الأفعال بإرادته، ولذلك استحق العذاب عليها.

الثالثة ـ طلب الرجعة . . وهذه لا تحصل لهم.

وأخبر - عَزَّ وجَلَّ - أنهم يحتجون بالقدر كذلك حين توبخهم الملائكة عند دخولهم جهنم: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (الزمر: ٧١).

وهذه كلمة حق يراد بها باطل فالحق أن كلمة العذاب قد حقت على الكافرين، ولكن لا تصلح هذه حجة لهم في نجاتهم من النار، ولذلك قال الله تعالى في الآية التي بعدها: ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (الزمر: ٧٢).

بل إنهم يحتجون بالقدر وهم في النار، مع علمهم أن الله - عَزَّ وجَلَّ - لم يظلمهم، ولكنهم يبحثون عن أية حجة ولو كانت واهية حتى يخرجوا من النار، وهيهات، قال تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ (المؤمنون: ١٠٦). فقال سبحانه رادًا عليهم أنهم استحقوا ذلك بأفعالهم ﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨)

إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ (المؤمنون:١٠٨-١١٠).

وهكذا احتج آدم بالقدر وقُبلتْ حجته، واحتج إبليس والمشركون ولم تُقْبلْ حجتهم، فمن شابه أباه فما ظلم ومن تشبه بقوم فهو منهم .. فاحذر الاحتجاج بالقدر مع الإصرار على الذنوب، وبادر إلى التوبة والإنابة، فالباب مفتوح.

فوائد الإيمان بالقضاء والقدر:

* الاطمئنان بالله وعدم الجزع، إذ قد كَتب كل شيء فلابد من حدوث ما كتبه فلا يجزع العبد إذ اختيار الله له خير من اختياره هو لنفسه، والله رحيم حليم.

* التوكل على الله وحده وعدم المبالاة بالناس كلهم، فلو اجتمعوا على ضره أو نفعه ولم يرد الله ذلك فلن يستطيعوا.

* عدم السخط على ما قدره الله من أمور الدنيا؛ فإن ذلك يفتح عمل الشيطان.

* الإيمان بحكمة الله الباهرة؛ حيث ما خلق شيئًا إلا لحكمة حتى ما يبدو فيه شر فإنه يترتب عليه خير عظيم.

* الإيمان بعلم الله الشامل، حيث وجه كل صنف لما يصلح له: ﴿**وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾ (البقرة: ٩٥)، ﴿**وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ**﴾ (آل عمران: ١١٥).

* الثقة في اختيار الله لعبده وعدم الحزن على فقد ولد أو زوج أو حبيب، فهذا الغلام الذي قتله الخضر لو عاش لكفر ولأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا، فلا تحزن على فقد حبيبك، فربما لو عاش حبيبك لجرك إلى المعصية.

* السعي بكل مستطاع في أسباب الهداية وترك المستطاع من أسباب الغواية، إذ كلٌّ ميسَّر لما خلق له، فمن سعى في الخير فُتِحَ له، ومن سعى في الشر فُتِحَ له.

* الخوف الشديد من سوء الخاتمة، إذ هي مُغيَّبةٌ والنفوسُ تستحق كل سوء، والربُّ أهلٌ لكل خير.

* عدم العُجْبِ بالعمل الصالح، إذ هو منةٌ من الله وتوفيقٌ منه أصلاً.

* عدم الأمن من مكر الله، ومُداومة لوم النفس ومعاتبتها إذ فيها من الآفات والخفايا ما لا يعلمه إلا الله.

* دَوَام اللجوء إلى الله والتضرع إليه بالتوفيق لكل طاعة، إذ المسلم يحتاج إلي فضل الله في كل نَفَس، وفي الحديث: «**ولا تَكِلْنِي إلى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ أبَدًا**»[1].

* التفريق بين المحبة والإرادة، فليس كل ما أراده الله أحبه وليس كل ما أحبه أوجده فقد شرع لعباده ما يُحِبّ، ولكن جعلهم يتصرفون بإرادتهم، فمنهم من يطيع ومنهم من لا يطيع.

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٤)، وحسنه الألباني.

* الإيمان بعظمة الله، إذ جبر العباد على مراده بإرادتهم هم فسبحانه لا يظلم أحدًا.

* الاقتناع التام بعدم ظلم الله لأحد، فالإنسان يفعل بإرادته ومشيئته هو، نَعَمْ هي تابعة لمشيئة الله، ولكنْ قد جعل الله له اختيارًا.

* اعتراف العقل بالعجز إذ لا يَعقِل كيفيةَ كثير من الغيبيات، فهو قاصر، ولكن عليه التسليم والاقتناع التام بعدل الله.

* الإيمان بالغيب، إذ يؤمن المؤمن بأشياء لا يعقل كيفيتها مع معرفته لمعناها وتصديقه التام بعدل الله ومسؤولية الإنسان.

وهذا ما تيسر جمعه حول موضوع الإيمان بالقدر وأثره في السلوك ـ ولله الحمد والمنة ـ، فاللهم إنا نسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة . . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



الفهرس

الموضـــوع	صفحة

الموضـوع صفحة

